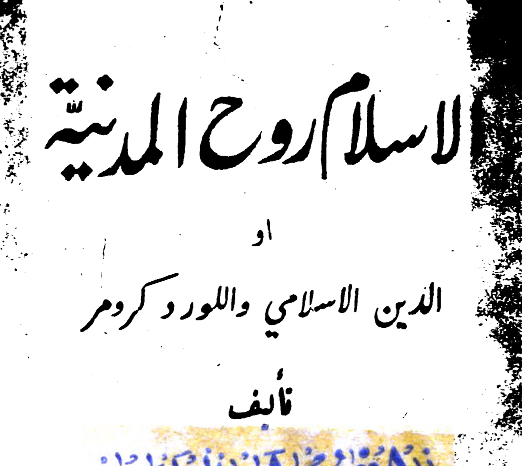


الاسلام روح المدنيّة

او

الدين الاسلامي واللورد كرومر

تأليف

الشيخ مصطفى الغلاييني

ISLAM IS THE SPIRIT of CIVILISATION

or

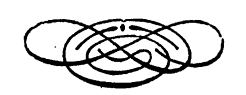
THE RELIGION OF ISLAM and LORD CROMER



فهرس اجمالي لمباحث الكتاب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٨٢	٠٥	ايحسب الانسان أن	ايحسب أن
١٨٣	٠٩	مسبغة	مسغبة
٢٢١	٠٦	والاقربون مما	والاقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما الخ
٢٢١	١٤	للرجل	للذكر
٢٢٣	٠٤	وأُخذن	وأَخذن

بقي بعض اغلاط في غير الآيات الكريمة لا تخفى على متأمل فلذا ضربنا صفحاً عنها



al-Ghalāyīnī, Muṣṭafā

al-Islām rūḥ al-madanīyah

الاسلام روح المدنيّة

او

الدين الاسلامي واللورد كرومر

معتمد الدولة الانكليزية في مصر سابقًا

تأليف

مصطفى الغلاييني

في بيروت

طبع سنة ١٣٢٦ ﻫ - ١٩٠٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

احمد الله حمد الشاكرين ، أن ارسل الهادي الامين ، محمداً عبده ورسوله رحمة للعالمين ، صلى الله عليه وآله وسائر الانبياء والمرسلين وآلهم اجمعين ·

« وبعد » فهذه كلمات رددنا بها مزاعم اللورد كرومر ومطاعنه في الدين الاسلامي ، وأبنا فيها ان الاسلام هو دين الفطرة والمدنية الصحيحة ، وانه يصلح للعمل به في كل زمان ومكان ، لا كما يزعم اللورد وامثاله — وسترى أننا في دفاعنا هذا لم نحد عن جادة الادب والصواب كما صنع كرومر · وليعذرنا اخواننا المسيحيون في مقابلتنا بين المدنيتين الاسلامية والمسيحية ، فاننا لم نقصد بذلك تحقير المسيحية كما فعل اللورد في الاسلام واهله ، حاشَ لله ان اكون من اولئك الطاعنين في الاديان ، ولكن الحديث ذو شجون ،

هذا واني اعتقد اعتقاداً جازماً ان جميع الاديان تأمر بالخير والسلام ، وهي وان اختلفت في بعض الاعراض فهي متفقة في الجواهر ، اذ الغاية منها تهذيب النفس ورفعها من وهاد الشرور والفساد ، فمن يسعى بهدم اركان الاديان ، هو كمن يسعى لتقويض العمران ، لان في دين المدنية الحديثة من المفاسد ما لا يُحصى ، ولولا سلطان الاديان القاهر لأُبيحت الاعراض والدماء والاموال · وفي ذلك من الخراب والدمار ، ما لا يصلحه الدرهم والدينار ، فبقاء الانسان في الجهل بعلوم الدنيا مع التمسك باي دين ، خير من حياته عالماً طبيعياً مهندساً الخ وهو لا دين له ·

الغلاييني

في بيروت

الاسلام وكروم

نظمها مؤلف هذا الكتاب

كرومرُ هل يُجدي العتاب المهذَّبُ
وهل انت مُولي النَّصف مَن جاء يطلبُ

والاَّ نخذ قولاً اشدَّ من الصَّفا[١]
يدافع عنَّا كيد من يتعصَّب

عذرناكَ لما قلتَ ما قلتَ خاطباً
وقلنـا عميد القوم «لوردٌ مهذَّبُ»

وأَنبَ قوم من بني الدين غيرةً
وما الناس الاَّ عاذر ومُؤَنِّب

فان تُلفِ قبل اليوم فينا مُعذِّراً
فما لك بعد اليوم في الشرق مُعتِب[٢]

***

عدوتَ على الاسلام في الحكم ظالما
ولا مُرشدٌ يَهديك الاَّ التعصب

---

(١) : الصفا الصخور الصلبة (٢) : المعذر من يلتمس لغيره عذرا ·
المعتِب : من يترك ما كان يغضب عليه لاجله

كتبت عن الاسلام ما لو قصصتهُ
على الصخر قال الصخر « يالورد » تكذب

فزورٌ وبهتـانٌ وإفكٌ مضلِّلٌ
واشياءُ املاها الهوى المتشعِّب

اهانتك مصر عن جوى بفوآدها
أهاَجتْهُ نارٌ منك اذ كنت تخطب

فان تكُ مصرٌ قد أساءَت واهلهـا
جفوْكَ فهم لا الدين « يا لورد » اذنبوا

فلو كنتَ تدري ايَّ مقبحـة جنَت
يداكَ لقلت الموتُ اشهى واطيب

كذبت على الدين الحنيفيّ كذبةً
ينوءُ بها الطودُ الاشمُّ فيُشعَب

وقام لهـا الاسلام والشرقـ كلُّه
ووجه الدُّنا منها عبوس مُقطِّب

رمتك النصارى بالملامة مثلما
رماكَ بنو الاسلام والكل صُخَّب

فقد علم الجيران أنَّا جميعَنا
أخلاَّءُ لولا مَن اتونا نخرَّبوا

***

كذبت علينا ايها «اللورد» عامداً
كما كذب الاوباشُ يوم تحزّبوا
أَتبغي بهذا شنّها «داحسيَّة»
لتأْتي بجرّار من الغرب يلجَب
فتجري دماء الخلق من اجل كذبة
وانت لها الجاني وأَنتَ المسبِّب
اترغب ان تأْتي الجيوشُ وتُهرق الـ
دّماء بدعوى ان يرّموا[1] ويَرْأَبوا
فياليتَ هاتيك اليراعة حُطّمت
ولم يبدُ من «مصر الحديثة» عقرب
فهل بك مسٌّ من جنونٍ وخفةٌ
بعقل فقمت اليوم تهذي وتصخب
وهل جئت مصراً داعياً لديانة
لترشد قوماً عن هداهم تنكّبوا . . .
نخضتَ كمن خاضوا من الفحش ابحراً
فعدتَ وعادوا مثلما عاد أَشعب[2]

(١) يرموا ويرأَبوا : بمعني يصلحوا (٢) هو الذي يضرب المثل في طمعه

فلو كنت قِسّيساً يُصارح جهرةً
عذرنا ولكن للسياسة تنسب
فان يكُ معذوراً فما لك معذرٌ
وان يكُ ذا خطب فخطبك اخطبُ
فذلك قسيس يشيد بصوته
جهاراً وما في امره ما يُعجِّب
وأَنت سياسيٌّ وشيخ مُوقَّرٌ
وللقوم في مصرٍ عميدٌ مُدَرَّب
دعوك لوادي النيل تصلح شأنه
وتنصح للاقوام أَن يتهذَّبوا
فما بالك اليوم اعترتك حماسةٌ
فأُبتَ وأَذيالَ التعصب تسحبُ
وفُهت بما قد فُهت لم ترعَ ذمَّة
ولا حرمـةً والحقد يُملي فتكتب

***

كنتَ لهم خمساً وعشرين حجةً
تراوغ منهم من ترى وتُرحّب

وتُظهر للاقوام غير الذي انطوى الـ
فـؤادُ عليهِ وهو غلٌّ مُنَقَّب

أتدعو بناتِ الشرق ترفع حجبَها
وقلبك هٰذاك الضلال المحجَّب

أَتدعو بني الاسلام للحق والهدى
وانتَ الذي عن منهج الحق تُجنب

كرومر لا ترجُ الذي انتَ آملٌ
فانَّ الذي تبغي عُذَيق مرجَّب (١)

وانَّ بني الاسلام والشرق كلَّهم
يَودُّون لو يُمحى الهوى والتعصب

فلا تبغِ انَّ البغيَ للشرّ منجع
ولا تعدُ فالعدوان للسوء مشرب

اتبغي بما خطَّتْ يمينك باطلاً
بان نترك الاسلام فالحتف اقرب

فللدين قوم يظهرون كماله
وللحرب اقوام اذا الخصم اجلبوا

---

(١) عذيق : تصغير عذق وهو من النخلة كالعنقود من العنب ·
مرجب : موضوع حوله الشوك لئلا يصل اليه احد

وللسِّلْمُ خير ان يجودوا بمثلها
وللحَرب إن لم تنفع السلم أنجب

***

كرومر ان الدين يأمر بالتي . . .
وحبِّ جميع الخلق هل هو مُذنب
وبالعلم والتقوى وما فيهِ للورى
فوائد للدنيا وللدين تُخطب
بلى أَنت فيما قلت غير مُصدَّق
وفيما على الدين افتريتَ مكذَّب
فهذا كتاب الله اعظم شاهد
يُبين الهدى لو كنت في الحق ترغب
فما ذا وراء الحق الا ابن فهلل (١)
وما ذا وراء الصدق الا التحزّب
بدا الحق فارتاع الضلال وحزبه
كذلك (يعلو الحق والحق اغلب)

---

(١) فهلل : من اسماء الباطل ، يقال : الضلال ابن فهلل

مقدمة الكتاب

ادعُ الى سبيل ربك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ وجادلهم بالتي هي احسن ، اِن ربّك هو اعلَم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلمُ بالمهتدين « قرآن كريم »

مَن أَمر بمعروفٍ فليكن امره بمعروفٍ « حديث شريف »

اللهم أَرِنا الحق حقًا فنتّبعه وأَرِنا الباطل باطلاً فنجتَنبهُ

اطلعت في جريدة المؤَيد التي تصدر في القاهرة على شذرات مما كتبهُ جناب اللورد كرومر معتمد الدولة الانكليزية في مصر سابقًا في كتابهِ « مصر الحديثة » فاذا هو قد شطّ بهِ القلم الى الكلام عن الاسلام والمسلمين فوصفهم ووصف دينهم كما شاء وشاء هواه مما يخجل منهُ وجه الحقيقة وتحمرّ له وجنة الصدق — ثم حكم بان المانع الأَعظم من ترقي المسلمين هو دينهم الى آخر ماقال . ولا ادري ما الباعث له على ذلك سوى التعصب الذميم والانتقام والتشفّي من المسلمين واغاظتهم بتحقير دينهم ، ولا اراه كتب ما كتب معتقدًا

بصحة ما كان يُمليه عليهِ تعصبه الوخيم ، ولا يقصد بذلك سوى التبكيت واهانة الاسلام واهله ، لان سموم الحقد والعداوة كانت جارية على اسلات قلمه الذي خطّ بهِ ذلك الكتاب فشوّه بذلك وجه الحقيقة وسوّد جبين الانصاف ، ولو كان يروم بما كتب النصيحة والموعظة لاستعمل غير ذلك الاسلوب الذي اودعه « مصر الحديثة » وجرى في التحرير مجرى آخر يظهر الحقيقة في ثوب مقبول لدى مَن طالع كتابه — ولكنهُ ابى ذلك ودخل في مضايق كان الاولى برجل مثله عظيم في قومه مسموع الكلمة نافذ الرأي يُؤخذ قوله حجة ان يكتب ما يراه الحق في نفسه لا ما يمليه عليهِ التشفي والتعصب ، حتى ترك نفوس المسلمين في جميع الاقطار ساخطة عليهِ وعلى كتابه ، بل ان جميع العقلاء من المسيحيين هم ساخطون ايضاً على ما كتبه اللورد من الطعن بالاسلام والمسلمين لانه خلاف الحق بل ليس فيهِ حبة من الحقيقة — وعجيب من رجل مكث في صميم المسلمين ربع قرن ويدّعي انهُ خالط علماءهم وكُبراءهم ان يكتب مثل ذلك الكتاب « كتاب مصر الحديثة » .

قال السيد الشيخ مصطفى لطفي افندي المنفلوطي في اسبوعاته التي ينشرها في المؤيد الأغر ما نصه وهو كلام معقول :

« لم ينشر اللورد كرومر كتابه ليؤثر به على نفوس المصريين

او ليقنعهم بصحة ما يقول عنهم او ليجعلهم يعتقدون في دينهم ما يعتقده هو ، فالرجل اذكى من ان يتطلع الى مثل هذه النتيجة ، وانما اراد به أن يشوّه سمعة المصريين في العالم الغربي انتقاماً منهم لبغضهم اياه واتحادهم على معاكسة اغراضه وافساد سياسته ، وتشفياً من دينهم دين الاسلام الذي يعتقد انه العروة الوثقى التي ألَّفت بين المصريين وجمعت كلمتهم على مقاومة كل مشروع انكليزي يمسُّ بجامعتهم الدينية . والرجل عظيم في قومهِ موثوق بينهم بصدقة وصحة ارادته فلا غرابة انه يبلغ بنشر كتابه هذا أُمنيتهُ من تشويه سمعتنا في ذلك العالم وتصويرنا بالصورة التي ارادها وقدرها » اه

وقالت جريدة « العدل » الانكليزية التي تصدر عن لندن فى مقال عنوانه « كرومر ومصر » بعد ان ذكرت ثناء مَن مدح الكتاب ورضي عنهُ ما نصه :

« والذي نفهمه من كل هذا الاطراء من هذه المصادر انه كتاب لا يضارعه كتاب آخر فى المطاعن والاكاذيب التي يؤلف منها اقوالاً مختلفة » اه

وقد عزمت بعد الاتكال على الله تعالى ان اكتب كتاباً ارد بهِ مزاعم اللورد وانقض اكاذيبه واقواله الافاكة نقضا ، واثبت ان الدين الاسلامىّ هو خير دين أُخرج للناس وانهُ «روح المدنية»

وموافق لكل زمان ومكان · غير اني اتحاشى ان اتعرض لغير الدين الاسلامي بسوء لاني اعتقد ان كل الاديان تامر بالخير وما فيه السعادة ، وعملاً بقوله تعالى « ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن » وقوله صلى الله عليهِ وسلم : « مَن امر بمعروف فليكن امره بمعروف » فان دعت الحاجة لذكر غيرا الاسلام من الاديان فانما اذكره لأُبين لجناب اللورد انه ليس خيراً مَن الاسلام فيما اخذ بهِ عليهِ اوأن الاسلام خير في هذه المسألة مثلاً · وحاش َلله ان اتطوَّح كما تطوَّح بهِ كروم من الفحش والبذاء والكذب للسبب المتقدم ، ولان (دولتنا العلية العثمانية) ايدها الله تنهى عن المشاغبات الدينية عملاً باوامر الشريعة المطهرة ، فامرها واجب الاتباع

وليس غرضي من هذا المقال الذي انشره اليوم اظهارَ أَنَّ الاسلام بريء من هذه الوصمات التي وصمه بها جناب اللورد ، لان ذلك معلوم لدى كل عاقل ترفَّع عن التدنس بدنس التعصب ، وانما غرضي منهُ ان اظهر لجناب اللورد ومن على شاكلته من اهل اوروبا ان الدين الاسلامي دون ما يفهمون وغير ما يكتبون ، بل بينه وبين مزاعمهم بعد المشرقين وبون الخافقين

خلاصة انتقاد كرومر على الدين الاسلامي

وخلاصة ماينتقده كرومر على الاسلام : انهُ دين منافٍ للمدنية ولم يكن صالحاً إلا للزمن والمحيط الذين وجد فيهما وان المسلمين لا يمكن ان يرقوا في سلم الحضارة والتمدن الا بعد ان يتركوا دينهم و ينبذوا القرآن واوامره ظهرياً لانهُ يأمرهم بالخمول والتعصب و يبثُّ فيهم روح البغض للاغيار والشقاق وحب الانتقام الخ ، ولانه اتى بما يناقض مدنية هذا العصر من حيث المرأة والرقيق الخ — ثم اخذ يفاضل بين الديانتين الاسلامية والمسيحية من حيث العبادات والاخلاق الخ واتخذ ذلك ذريعة للطعن في الاسلام وعباداته واخلاقه وآدابه الخ — فعل ذلك بعد ان مدح الاسلام من حيث هو عبادة وادب فكان في كلامه التناقض الظاهر . اما كون الاسلام شريعة وسياسة ومعاملات فهو مما لا يوافق عليه اللورد ابداً بل يُنحي عليهِ اشد الانحاء ويطعن فيهِ اوسع الطعن من هذه الجهة .

ولباب الامر « على رأي كرومر » ان المانع الاعظم والعقبة الكؤود في سبيل رقي الامة الاسلامية هو الدين او القرآن . وسترى فيما سيلقى عليك خطأَ اللورد وخلطه وكذبه ان شاء الله تعالى .

الاسلام روح المدنية

اجمال عن المدنية الاسلامية

الدين الاسلامي هو الدين الوحيد الذى يرافق العقل جنباً لجنب و يتمشى مع المدنية في طريق واحدة ويصافح الانسانية يداً بيد ، وهو الدين الذي رفع منار الحقيقة على ذروة لا تُنال وشاهق لا مطمع فيهِ لاقوى النسور فكيف ببغاث الطير ، وهو الدين الذي رفع شأن الانسانية من حضيض الهوان الى ربوة العز والشرف ، وهو الدين الذي اخذ بيد الضعيف حتى أَدال من عسف القوي وظلمه ، فتساوى الفريقان وتآخى القبيلان واستوى القومان بجميع الحقوق المدنية فلا فارق بين ضعيف وقويّ وفقير وغنيّ الا بما منحه الله من ذكاء الفطرة والعلم والتقوى والعمل الصالح ، كما جاء في القرآن الشريف : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » وقال محمد صلى الله عليهِ وسلم : « لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى » وقد جاءه أُسامة بن زيد يشفع في شخص ليسقط عنهُ حدّ السرقة فغضب الرسول لذلك وقال له : « اتشفع فى حدٍّ من حدود الله ؟ والله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »

خطب ابو بكر رضي الله عنهُ فحمد الله واثنى عليه ثم قال :

« ايها الناس قد وُلّيت عليكم ولست بخيركم ، فان رأيتموني على حقّ فاعينوني وان رأيتموني على باطل فسددوني . اطيعوني ما اطعت الله فيكم فاذا عصيته فلا طاعة لي عليكم . ألا ان اقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له ، واضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منهُ . اقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم »

قال ابو بكر هذا القول لتأثير مكارم هذا الدين عليهِ واستيلائها على نفسه لانه يأمر بالعدل وكل ما فيهِ السعادة في الدارين — وانّ من امثال هذه الاحكام والآيات في القرآن وكلام محمد عليه الصلاة والسلام وسيرة خلفائه كثيراً تضيق عنه الصفحات ، وكله في الآداب والاخلاق والتربية الصحيحة والسياسة على اختلاف موضوعاتها مما يصلح لكل زمان وكل مكان وكل امة

الدين الاسلامي هو الدين الذي خلّص الناس من عقيدة الشرك وتكثير الارباب ، وازال عنهم برقع الخرافات المضللة وكسر عن عقلهم قيود الاوهام ، ونجاّهم من فساد الاخلاق ، وطرد عنهم تلك الظلمات التي اظلّتهم سنين عديدة ، بما بثّهُ فيهم من انوار الهداية والتعاليم القويمة ، فتهذبت نفوسهم وحسنت عقيدتهم ونما في قلبهم حب الرحمة والرأفة ، فرأوا من اجل ذلك نور الحق يتلألأ في سماء قلوبهم ، ويتبلّج بين عقولهم التي كانت مظلمة بفساد التربية

وسوء الاخلاق وشوئم العقيدة

الدين الاسلامي هو السبب الوحيد لتخليص اوروبا من تلك المهاوي التي كانت ساقطة فيها الى حين الحروب الصليبية ، فهو المنار الذي هداها ، والمرشد الذي اناف بها على يفاع التمدن والعلم ، ولولاه لكانت الى الان غارقة في بحور الجهل ، تائهة في بيداء التأخر ، تتخطفها تيارات الاوهام ، تقذفها تارة وتعود بها الى ما كانت عليهِ تارة اخرى — يعلم ذلك من درس التاريخ حق الدرس وسبره بمسبار الانصاف — على اننا لم نعدم اقواماً منصفين من اهل اوربا وخصوصاً من الامة الانكايزية أبانوا ذلك لقومهم دون ان يخافوا ثورة العامة وهياج علماء الدين ٠

علماء الاسلام وفلاسفتهم هم الأُلى لهم القدح المعلى والقدم الراسخة في تهذيب اوروبا وتمدينها بسبب ما اكتسبتهُ من تآليفهم وآرائهم وعلومهم ٠ وهم الى الآن عيال على بعض مؤَلفات المسلمين في الاخلاق والسياسة والآداب والطب الخ — نعم ان علماء اوروبا تناولوا تلك الكتب ودرسوها وترجموها الى لغاتهم ولما برعوا في العلوم والفنون والاكتشافات العصرية اصلحوا بعض ما فيها من الخطأ لان التجارب العلمية والادلة الحسية ابانت لهم ذلك ، فلهم بهذا فضل لا ينكر ، بل لولاهم لاودى بتلك العلوم والفنون

غول الجهل ، فعلماء اوروبا حفظوها من الضياع ودرسوا ما فيها فاستفادوا وافادوا ، ولهم الشكر على كل حال

نتج مما تقدم انَّ الدين الاسلامي هو روح المدنية في كل زمان ومكان وليس كما يزعم جناب اللورد كرومر ومن على شاكلتهِ من الاوربيين

فالدين الاسلامي دين المدنية الحقة ، ومحمد وكتابه هما السبب الاعظم لتخليص اوروبا من سلاسل الجهل وكسر قيود الانحطاط الادبي والمادي عن عقول اهلها ولا ينكر ذلك الا مَن باع عقله في سوق التعصب — وهذه الدعوى اثبتها بما يأْتي :

جاءَ محمد صلى الله عليهِ وسلم والامم جمعاء قد اظلّتها سحابات الفتن في الدين والدنيا فخلص باديء بدء شعبه العرب من تيار الجهل والخرافات وفساد الاخلاق ومنكرات العادات كوأْد البنات وشنّ الغارات واضطهاد النساء لدرجة تنفر منها الانسانية بالادلة الساطعة والبراهين الدامغة اللامعة —نشأَ لا حول له ولا قوة فتبعه الضعفاء من الناس ، فلما قويت شوكته دعا الناس جهرًا لترك ما هم فيهِ مما يضرُّبهم دنيا ودينًا ، فاجاب اكثرهم بلا رهب ولا قوة ، ولم يتعرض لمن عارضهُ بسوء الا بعد ان قلبوا له ظهر المجنّ وصارحوه بالعداوة والاذى ، فقابل المعتدي بما يستحق ، ولما تمكّن منهم وظهر عليهم

وكان باستطاعته ابادتهم واهلاكهم عن بكرة ابيهم ، صفح عنهم وغفر لهم ما جنت يداهم فكان ذلك سبباً لاسلامهم اجمعين . — ولما نجّى شعبه صار يرسل الرسائل والبعوث للتبشير بالدين : فمنهم من اجاب ومنهم من رفض ، الى ان توفي عليهِ السلام والكون كله ألسنة شكر ناطقة له بما قام به من التمدين والتهذيب والارشاد . فخلف من بعده قوم انتهجوا منهجه وساروا في طريقته فانتشر الاسلام في الافاق ، وعمَّ الشام والعراق وافريقية وبعض اوروبا — ثم تصدَّى قوم من الامراء والعلماء لاقتباس علوم الاغيار ليأخذوا ما يرونهُ حسناً موافقاً للمصالح الدنيوية ، فترجموا علوم اليونان وبرعوا فيها وأَصلحوا ما فيها من الخطأ الذي يظهره توالي الايام وترقي الافكار ، كما اصلح علماء اوروبا علوم العرب بتجاربهم الحسية — فصار الاسلام وعلماؤُه ملجأ طلاَّب العلوم الدنيوية كما كانوا مقصد التهذيب والاخلاق والاصلاح والنجاة في الاخرة — على ان في القرآن من تلك العلوم التي ترجموها الى لغتهم كثيراً مشاراً اليه بتصريح او تلميح او طرف خفي ، فتراه يتكلم عن العلويات والسفليات من كيفية انزال الامطار وسير الكواكب وحركات الافلاك وانبات النبات وغير ذلك كاحسن بارع في تلك العلوم اليوم . بل انهُ صرَّح بجملة من الاراء في الفلك والارض لم يكن يعهدها العلم من قبل ، بل كان المفسرون في

حيرة من تطبيقها على ما يعلمون الى ان ترقى العلم اليوم وشرح كثيراً
من تلك الآيات الباهرات واثبت صحتها بعد ان كانت في طي الخفاء
زهاء ثلاثمائة سنة والف «١٣٠٠» تتخطفها الاراء وتلوكها الافواه،
وهذا سرٌّ من اسرار إعجاز القرآن الذي هو اعظم معجزة لذلك النبي
الامي الى آخر الدوران — بل ان فيهِ من التلميح ما لم يكشف عنهُ
العلم العصري وسوف يأتي زمان ارقى وعلماء ارسخ كعباً وانمى ذكاء
يكشفون اللثام عن تلك المخدرات التي لم تزل قابعة في خدور صدوره

درس علماء الاسلام تلك العلوم ايام شباب الدين فوجدوها
تمشى مع الدين جنباً لجنب ، بل انها مما تزيد في العقيدة لان فيها
من المباحث الجليلة ما يقوي الاعتقاد بقدرة الخالق عزَّ وجلَّ
و يعينهم على تفسير كثير من آيات القرآن في الافلاك وطبقات الارض،
فازدادوا بذلك نوراً على نور وعلماً على علم ، وعرفوا أن القرآن هو
كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،وأنه
هو الكتاب الذى لا تفنى عجائبه ولا تبيد غرائبه

صرح القرآن منذ ثلاثمائة سنة والف بدوران الارض في قوله :
« وترى الجبالَ تحسَبُها جامدة وهي تمرُّ مرَّ السحاب » فحركة الجبال
وهي متصلة بالارض تقضي بالضرورة بحركة الارض التي هي مركوزة
فيها — لمح القرآن الى كروية الارض من طرف خفي فقال : « يُكَوِّرُ

الليل على النهار» وتكويره يقتضي تكويرَ ما انبسط عليه — صرح القرآن بان الحكمة من وجود الجبال ألاَّ تخلّ دورة الارض فيفسد نظامها ويهلك سكانها فقال: «ألم نجعلِ الارضَ مهاداً والجبال اوتاداً» وقال: «وألقى في الارضِ رواسيَ أنْ تميدَ بكم وانهاراً وسُبُلاً لعلكم تهتدون» المهاد: الفراش، وقد جعل الله الارض موطئاً للناس والدواب يقيمون عليها فهي فراش لهم. والاوتاد: جمع وتد وهو ما تشدّ به الخيمة، وانما كانت الجبال اوتاداً لان بروزها في الارض كبروز الاوتاد المغروزة فيها ولانها تثبّت الارض وتمنعها من الميدان والاضطراب كالاوتاد التى تحفظ الخيمة. تميد: تضطرب.

صرَّح القرآن بان هذه الجداول والانهار والينابيع اصلها من ماء المطر فقال: «ألم ترَ أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيعَ[1] في الارض ثم يُخرِجُ به زرعاً مختلفاً الوانهُ ثم يَهيجُ فتراه مُصفرّاً ثمّ يجعله حُطاماً، ان في ذلك لذكرى لأُولي الالباب» — صرَّح القرآن ان المطر اصله من السحاب التي تجتمع مما تمتصه حرارة الشمس من الارض فقال: «ألم ترَ ان الله يُزجي سحاباً ثم يُؤَلّف بينهُ ثم يجعله رُكاماً فترى الوَدْقَ يخرج من خِلالهِ، ويُنزّلُ من السماء

---

(١) الينابيع: جمع ينبوع وهو العين الذي يخرج منه الماء. يهيج: يصفرُّ حطاماً: يابساً متكسراً

من جبال فيها من بَرَدٍ[١] فيصيبُ بهِ مَن يشاءُ ويصرفهُ عمَّن يشاء»
والمراد من السماء السحاب كما هو المعتمد عند اكابر المفسرين واصاغرهم
لان كل ما علاك فهو سماؤك حتى ان سقف البيت سماء ، والمراد
بالجبال التي ينزل منها البرد هي قطع السحاب العظيمة شبهها بالجبال
لعظمها او لجمودها ، قال المفسر البيضاوي : « والمشهور ان الابخرة
اذا تصاعدت ولم تحللها حرارة فبلغت الطبقة الباردة من الهواء
وقوي البرد هناك اجتمعت وصارت سحاباً فان لم يشتدِّ البرد تقاطرت
مطراً وان اشتدَّ فان وصل الى الاجزاء البخارية قبل اجتماعها نزل
ثلجاً والاَّ نزل برداً »

صرح القرآن بان القمر مظلم بذاته وأَن الشمس مضيئة بنفسها
فقال : « وجعلنا الشمس والقمر آيتينِ فمحَونا[٢] آيةَ الليلِ وجعلنا
آيةَ النهارِ مُبصرةً لِتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عددَ السنينَ
والحسابَ ، وكلَّ شيءٍ فصَّلناه تفصيلاً »

صرح القرآن بان الارض والسماء كانتا كتلةً متَّحدة ومادة

---

(١) يزجي : يدفع ويسوق . السحاب الغمام . ركاماً : اي بعضه فوق بعض . الودق : المطر . البرد : هو ما يبرد من المطر في الهواء فيصلب

(٢) محونا آية الليل : جعلناها مظلمة بنفسها وانما نورها مكتسب من الشمس ، وآية الليل هي القمر . وجعلنا آية النهار مبصرة : اي مضيئة بنفسها لان النور ذاتي لها ، وآية النهار الشمس

واحدةً ففرَّق بينهما — والمراد بالسماء هو ما فيها من الكواكب كالشمس وغيرها — فقال: «أَوَلَمْ يَرَ الذين كفروا أَنَّ السموات والارضَ كانتا رتقًا ففتقناهما وجعلنا من الماء كلَّ شيءٍ حيٍّ أفلا يُؤمنون . وجعلنا في الارض رواسيَ أَن تميدَ بهم . وجعلنا فيها فجاجاً[1] سبُلاً لعلهم يهتدون »

صرح القرآن بان لكلّ شيء في الكون سبباً وعلاقةً وحكمةً يجري عليها ونظاماً لا يتعدَّاه فقال: «صُنعَ اللهِ الذي اتقنَ كلَّ شيء » وقال «وإنْ من شيء الاَّ عندنا خزائنهُ وما نُنزِّله الا بقدرٍ معلوم» وقال : « وما خلقنا السماءَ والارضَ وما بينهما باطلاً » وقال : « والارضَ مددناها وأَلقينا فيها رواسيَ وأَنبتنا فيها من كل شيء موزون» وقال: « والشمسُ والقمر بحسبان، والنجم[2] والشجر يسجدان، والسماء رفعها ووضع الميزان »

واخبر أَن في السموات والارض عبرًا وآياتٍ مدهشاتٍ فقال: « قل انظروا ماذا في السموات والارض وما تُغني النُذُر عن قوم

---

(١) كانتا رتقاً : اي ملتحمتين ، ففتقناهما : فصلناهما . فجاجاً : جمع فجّ وهو شقة يكتنفها جبلان و يستعمل في الطريق الواسع وهو المراد هنا

(٢) النجم : هوكل نبات ليس له ساق يقوم عليها وهو ضد الشجر فانه النبات الذي له ساق . وليس المراد هنا بالنجم النجم المعروف كما تتوهم العامة

لا يؤمنون » وقال : « وكم من آيةٍ في السموات والارض يمرّون عليها وهم عنها معرضون »

صرح القرآن بان قيام هذه الاكوان بنظام الجاذبية التي اودعها الخالق سبحانه فيها فقال : « وهو الذي يمسك السمواتِ والارضَ ان تزولا ، ولئن زالتا إن امسكهما من احدٍ من بعده انهُ كان حليماً غفوراً » وقال : « ويُمسك السماء ان تقع على الارض الاّ باذنه انّ الله بالناس لرؤوف رحيم » وقال : « وهو الذي رفع السمواتِ بغير عمدٍ ترونها ، ثم استوى على العرش وسخّر الشمس والقمر كلٌّ يجري لاجلٍ مسمّى ، يدبّر الأمر يفصّل الآياتِ لعلكم بلقاء ربكم توقنون » فقد صرح ان ما نراه من الكواكب وما نشاهده من النجوم ممسَك بعمدٍ غيرِ مرئية ، وهي لا شيء الا الجاذبية ·

صرح القرآن بكثيرٍ من الاراء المهمة التي اثبتها العلم العصري وجعلها قاعدة واساساً بنى عليهِ كثيراً من المسائل والمباحث ، ولولا خوف الملل لاوردت منهُ ومن كلام نبينا محمد صلى الله عليهِ وسلم ما تضيق عنهُ الصفحات ، ولكنّ في هذا الاجمال نموذجاً لما في القرآن من العلم الصحيح والفلسفة المدهشة ، عدا ما فيهِ من المباحث الاخلاقية والادبية والدينية المرقّية للآداب المهذبة للنفوس التي تجعل المرء سعيداً في الدارين ، وهي التي جاء الدين لاجلها

علم فلاسفة المسلمين كل ذلك وضموا اليهِ ما اقتبسوه من علوم اليونان وساروا في هذه السبيل الى حين الحروب الصليبية المشؤومة فكان من ذلك الوقت مبدأ انحطاط المسلمين بما شغلهم من الحروب والسياسة والاضطراب فهجروا العلم وتركوا التعلم ، ولم يبق بينهم من العلوم الا العلوم الدينية ، بل لا ابالغ اذا قلتُ : انهُ من ذلك الحين ضعف العلم الديني ايضاً عندهم — هذا عدا ما طرأ عليهم من من الاهواء والاراء السخيفة في الدين التي اتاهم بها المقلدون و بعض مَن يزعمون التصوف وليسوا من اهله (١) وروَّجوها باسم الدين والدين منها بَراء ، بل ان مبادئه القويمة تناقضها كل التناقض فخسر بذلك المسلمون الدنيا والدين ، نعم انهُ لم يخلُ عصر من العصور بعد تلك الحروب من علماء حقيقيين وفلاسفة ناهضوا تلك البدع والخرافات التي الصقها بالدين اولئك الجهلاء الاغبياء لمقاصدهم الخبيثة وهي جذب العامة اليهم رجاء ان يتعلقوا بهم ، ولكن كان صوت هؤلاء العلماء ضعيفاً لا يصل الى اعماق قلوب العامة ، بل ان كثيراً منهم لم يكن يقدر على المجاهرة بالحق خوف التكفير والتفسيق

أَضف الى ما تقدم خروج التتار وتحريقهم كتب العلم واغراقها

---

(١) اما التصوف الحقيقي فلا بأس به بل هو لباب الشريعة لانه مهذب للاخلاق مربٍّ للنفوس

وتخريب بلاد المسلمين وسفك الدماء البريئة الى غير ذلك مما تقشعر منهُ الابدان وتسمئز منهُ النفوس ·

هذا بعض ما اصاب المسلمين من الضعف الديني والدنيوي خلا ما اصابهم من تشتت اهواء الامراء والحكام في تلك العصور ، وهي التي جرَّت على الشرق ويلات عظيمة لم يزل اثرها الان وليس هذا موضع تفصيلها — كل ذلك كان سبب تأخر المسلمين

وان مبدأ تقدم اوروبا للعروج في معارج الحياة والرقي في سلم المدنية هي تلك الحروب الصليبية وحروب الاندلس ، وكانوا قبلها في ظلمات بعضها فوق بعض ، فلما جاءت جيوشهم لتخليص البلاد المقدسة من ايدي المسلمين بسبب ما اوحاه اليهم التعصب الذميم وما القاه في قلوبهم ذلك المتحمس الذي افاض التعصب على قلبه تلك السموم التي مزَّقت جسم العالم ، حتى انهم كانوا ينشدون الاناشيد لتحميس دول النصرانية وابنائها في تلك البلاد على مدّ يد المعونة لتخليص البلاد المقدسة من ايدي المسلمين بحجّة انهم وحوش ضارية وقوم كافرون ····

فكان ما كان مما لست اذكره فظنَّ «شرّاً» ولا تسأل عن الخبر

— رجع الصليبيون يحملون الى قومهم علوم المسلمين ومدنيتهم بعد أن علموا انَّ ما كان يصفهم بهِ المتعصبون من التوحش والجهل

والفساد ليس له نصيب من الحقيقة وانهم براء منهُ · فكانت اذ ذاك اوروبا متكسعة في ظلمات من الجهل ، يتخبط اهلوها في دياجير الاوهام والخرافات تخبط العشواء في الليلة الظلماء ، فكان ما حمله اليهم قومهم من انوار المدنية الاسلامية التي اقتبسوها ايام الحروب الصليبية مصابيحَ تهديهم فيماهم فيهِ من الجهل والغرور والخرافات ، عدا مااخذوه من بلاد الاندلس ايام حدث فيها ماحدث — فمن ذلك الوقت اخذ الاوربيون يرتقون في معارج المدنية والعلم شيئاً فشيئاً الى ان بلغوا ما نراهم فيهِ الآن من القبض على نواصي الفنون وصوالج المجد · اما نحن فكنا نتأَخر عنهم بمقدار تقدمهم بل اكثر ، فكانوا كلما تقدموا الى العلم والمدنية شبرًا تأَخرنا عنهم ذراعاً ، وكلما خطوا فى سبيل الحضارة ذراعاً تأَخرنا باعاً الى ان بلغ بنا الخطب ما نحن معاينوه ، فاصبحوا هم السادة في العلوم والاساتذة في الصناعات بعد ان كانوا عبيداً اذلاء تنفر منهم المدنيــة والفنون بمقدار ماينفرون هم منها ، وصرنا نحن العبيد والتلاميذ بعد ان كنا سادتها واستاذيها :

يا شرق فانزع عنك ثوب الونى	وأستبدل المبهج بالموجع[(١)]
فقد كفى اهليك ما نابهم	حتى اضاعوا واضح المهيع

(١) هذه الابيات للمؤلف من قصيدة ، وهي من القصائد الشرقيات

كان لهم ما كان من عزّةٍ ارفع من اوج السهى الأَرفع
قد ملأَ الكونَ شذا ذكرهم من موضعٍ يسري الى موضع
فما ترى الا قلوباً له ترنو كاسراب القطا الشُرَّع
قد رفرفت من حوله وُلَّهاً رفرفةَ الطير على المشرع

***

فيابني الشرق واهل الحجى حسبكمُ ما حلّ في الأربُعِ
هل فيكم من حازم اروع جَعبة عقل عالمٍ أَلمعي
يكسر قيدَ الجهل عن عقلنا وينزع الرمح من الأَضلع
فنرتقي اوج العلا بعد أَن لم يكُ للشرقيّ من مطمع
وليس بدعاً إِن نكن نرتقي لمجدنا من هوَّة المصرع
فالشمس بعد الكسف تبدو لنا وتنجلي في رائع المطلع
والجدُّ يُدني شاسعات المنى واليأْس يُقصي دانيَ المنجع

— اصابنا كل ذلك — غير ان هذا ﴿ العصر الحميدي ﴾ قد اشرقت فيه العلوم والمدنية بهمة مولانا امير المؤمنين السلطان الغازي ﴿ عبد الحميد ﴾ خان أَيده الله ، فانهُ لما رأَى حاجة البلاد اليها امر حفظه الله بافتتاح المدارس على اختلاف طبقاتها في جميع الممالك المحروسة وسهل للناس سبُل التحصيل واكتساب العلوم والصناعات على تباين انواعها فاخذنا نعرج في مراقي الحضارة والفنون ، ولا يمضي زمن الا

و يرجع الينا ما اضعنا من المجد الغابر مجد آبائنا الاولين ونصير نفتخر باعمالنا بعد أن كنا نُزهى بالعظم الرميم — ولا غرو فانه الخاقان الذي يفتخر بهِ العصر كما افتخرت العصور الغابرة بآبائه ، فاننا لا نرى يوماً يمرّ الا ونشاهد له من جلائل الآثار وعظائم الفعال ماتضيق الطروس عن تسطيره ، و يكفيهِ فخراً ومجداً تلك ﴿ السكة الحديدية الحميدية الحجازية ﴾ التي هي غرة في جبين كل مشروع خيري ديني مادي سياسي ، عدا ما انشأه من المعامل والمدارس العلمية والدينية والحربية والصناعية والحقوقية — وطالما يحثّ رجال دولته العظام على الاقتداء باعماله من حث الرعية على العلم والتمدن والاخذ باهداب الفضائل والافعال التي تعود عليهم بالخير العميم في الدارين . وقد شاهدنا باعيننا تلك السكك الحديدية البخارية والكهربائية التي أنشئت في بلاده المحروسة ، وتلك المدارس التي شيدت في ايام سلطنته القوية الشوكة ، ولا سيما في مدينتنا بيروت ومن احدثها عهداً « المدرسة الصناعية التجارية الحميدية » التي انشأها بامره السامي صاحب الدولة خليل ابراهيم باشا والي ولاية بيروت الجليلة .

يرى القارىء فيما اسلفناه ان محمداً صلى الله عليهِ وسلم كان سبب تخليص الامم الاوربية من الجهالة والهمجية لانه خلص اولاً

شعبه ثم اخذ الشعب بتخليص سائر الامم الى ان تعدى ذلك لاهل اوروبا — فاروبا لولا محمد وكتابه لبقيت غارقة فى تيار الخمول ، نائمة في وديان الجهل الى ابد الآبدين ودهر الداهرين ، والتاريخ اعظم شاهد على ما نقول ، لانها لم تأخذ باسباب التقدم والتمدن الا بعد ان اختلطت بالمسلمين يوم الصليبيين وحروب الاندلس (اسبانيا) وانشأت تتلقى عنهم العلم والفلسفة والآداب ·

الا يحق لنا بعد ذلك ان نقول ان « محمداً » ممدن الامم و« كتابه » منار العالم ، لان فيه من العلم الوافر والفلسفة المدهشة والاخلاق الكريمة والتهذيب العالي والاحكام السامية والمدنية الحقة ما لا يحيط به الوصف ولا يقدر على التعبير عنهُ اللسان

وقد ذكرت فيما سلف بعض الآيات التي تكلم فيها القرآن الكريم على المسائل العمرانية والكونية ، وكان يجدر بي الآن بعد ان ثبت ان القرآن كتاب كوني تاريخي سياسي اخلاقي نظامي عائلي أن اذكر ايضاً بعض الآيات الدالة على المدَّعى ولكن خشيت من طول البحث ، وساذكر طرفاً من ذلك فيما بعد في بعض ابواب هذا الكتاب· ومن رام تلك الآيات مع سائر المواضع فعليهِ بقراءة القرآن قراءة فهم وتمعُّن فيجد فيهِ السؤْل ، فانهُ مستفيض المواضيع الاخلاقية والتهذيبية والادبية والزجرية والاحكامية والسياسية

التي تصلح لكل زمان ومكان وقوم ، حتى ان من نظر الى القصص التي يُوردها عن الامم السالفين في اخبار الانبياء فلا يراه يذكر قصة الا وفي خلالها من الحكم والارشاد ما يأخذ بالعقول ويدهش الالباب

هكذا قام الدين الاسلامي وعلى هذا الاساس المتين المحكم شيد بناؤه وأقيمت صروحه — على توحيد الله « الذين يفتخر اليوم عقلاء اوروبا بالرجوع اليه بعد ان كانوا يتخبطون في ظلمات تعدد الآلهة » — على العدل في جميع الامور والمساواة بين الافراد على اختلاف طبقاتهم — على العلم الذي ينفع الانسان في دنياه وينجيه في اخراه ، وطلبه ولو في الصين وتحصيله ولو في الثريا — على مدّ يد المعونة نحو البائسين والفقراء والضعفاء الذين قعد بهم الحظ وعاكستهم الطبيعة — على تسهيل سبل الراحة لمن كانوا تحت حكمه على اختلاف لغاتهم واديانهم ومذاهبهم ، يحفظ لكل حريته الشخصية ودينه لا يعارض احدا فيما يعتقد كما جاء في القرآن الكريم : « لكم دينكم ولي دينِ » يمنع الناس مما يضرّ بهم ادبياً ومادياً من القمار والخمر والتبذير وسلوك طريق الشر ، الى غير ذلك من مكارم الاخلاق ومحاسن العادات

أَيُعترض على الدين الاسلامي بمثل تقريره هذه الامور وحمل الناس على العمل بموجبها حتى يكونوا سعداء في الدارين ، مسرورين

في الحياتين ؟

اظن ان اللورد كرومر لم يعلم من حقيقة الدين الاسلامي شيئاً او علم وتجاهل وصدَّه عن الجهر بالحقيقة المحاباة والتعصب الذميم ، او انه لم يزل يعتقد ما زوَّره اولئك الاقوام الذين اضرموا نيران الاحقاد على المسلمين فكان من جراء ذلك تلك الحروب المشؤومة التي جرّت على الشرقيين وخصوصاً المسلمين تلك الويلات التي من جملتها كساد سوق العلم وضعف الدين الصحيح ، اعني بها « الحروب الصليبية » فهو يتشدق بذلك ويسطره على صفحات الاوراق وينشره بين قومه فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

قلت ولم أزل اقول : ان جناب اللورد لم يعلم الدين الاسلامي على وجهه بل ظن أنه هو ما رآه من اعمال المسلمين ايام اقام بينهم في مصر ، وإن اختلاطه بامرائهم وعلمائهم لم يفده شيئاً عن الدين الصحيح لان اجتماعاته كانت قاصرة على المباحث العامة ومصالح البلاد السياسية او بعض امور أخر لا دخل لها في الدين ، ولو انهُ سأَل اساطين العلم الذين يعترف بفضلهم لأَبانوا له عن حقيقته شيئاً لم يكن في حسبانه ، غير انهُ اقتصر على ظواهر الامور فحكم بما حكم . ولظنهِ ان الدين هو ما رآه من اعمال العامة وبعض العلماء البسطاء وصف ذلك الفيلسوف الشرقي والعالم الكبير بانه كان غير متدين

او أَن ايمانه كان ضعيفاً ، فاخطأ القصد وضل المنهج ، لان الايمان راجع الى السر فالاطلاع عليهِ شيء من الصعوبة بمكانٍ لا يُدرك . ولعلّه يقصد بذلك انه كان غير متدين بما يدين بهِ اولئك البسطاء الذين تلقّوا الدين على غير وجهه الصحيح ولبسوه كما يلبس الفرو مقلوباً ، فان كان كذلك فقد اصاب لان الرجل كان متديناً بالدين الحق وعلى وجهه الحق: رجع بهِ الى السذاجة الاولى ولم يخلطه باباطيل الخرافيين ولا ترهات المزوّرين ، لان الدين الاسلامي كما قدمنا دخله كما دخل سائر الاديان كثيرٌ مما ليس منه وروّجه اولئك الجهلاء باسم الدين ، حتى عدّه كثير من عوام المسلمين بل ومن علمائهم من الدين وناضلوا عنه كما يناضلون عن قواعده الاصلية ، فظن مَن لا خبرة له من الاجانب ان الدين الاسلامي هو عبارة عما يرونه من اعمال المسلمين ويسمعونه من افواههم ويقرؤونه في بعض مؤلفاتهم ، ولو علموا الحق لرجعوا عن هذا الحكم الجائر . وقد قال ذلك الفيلسوف العالم الذي وصفه اللورد بضعف الايمان : « الاسلام محجوب بالمسلمين » ومعنى ذلك ان حقيقة الدين وجوهره صارت لاضمحلالها كلا شيء وغلبت عليها اعمال اهل الدين حتى سترتها عن اعين الناظرين فاصبحت محجوبة بتلك الاعمال التي يناهضها الدين وتناقضها قواعده ومبادئه ، فمن رأى

افعال المسلمين التي هي في الحقيقة مخالفة لشريعتهم ظنَّ أنها من الدين فوصمه بما يصمه بهِ اليوم اللورد كرومر من مخالفته للمدنية وانه عقبة في سبيل رقي المسلمين، حتى صرح بانهُ مستخف به كما قال عند كلامه على السيد محمد بيرم التونسي: « فكنت وانا احادثه انسى كل ميل الى الاستخفاف بالدين الاسلامي »

انىَّ لنا ان يرفع جناب اللورد حجاب التعصب عن قلبه فيرى أَن الدين الاسلامي غير ما يزعم وان الاسلام محجوب بالمسلمين :

لاتظنَّ الدين ما قد هوّلوا ليس دين الله تلك البدعا[1]
انما الدين ضياء لمعا فأَنار الكون لما سطعا
قبستْ منهُ البرايا شعلةً صدعت قلب الدجى فانصدعا
إِن رآها الليل في غُلوائهِ أَجفل الليلُ وولّى فَزِعا

***

لاتظنَّ الدين افعال الأُلى تخذوهُ للبرايا خِدَعا
لبسوه كِفراءٍ قُلبتْ ولوَوْادون الصحيح الاخدعا
ضلَّ مَن يجعله مِصيدةً لحُطام او يراه سِلعا

(١) الابيات للمؤلف من قصيدة من القصائد « الشرقيات »

الاسلام دين وشريعة معاً

نعني بذلك انه دين يتقرب بهِ الى الله تعالى ، وشريعة اي معاملات واحكام تصلح للتعامل بها في كل زمان ومكان ، فاللورد لم يستطع انكار الشق الاول البتة ولكن كلامه مضطرب فيهِ كما سيأتي . قال :

« اما من جهة نظر المتأدب فلا سبيل الى انتقاد مبادىء الاسلام الاساسية ولكن الانتقاد يوجه فقط الى السيئات التي نشأت فاصبحت الآن تستر سذاجته الاولى »

ولكنه انحى عليهِ من حيث هو شريعة ومعاملات وحكم بعدم مرونته وانه لا يصلح الا للزمان الذي وجد فيه وانه لا يفيد الا الطبقات المنحطة من البشر الخ . ومن وزن كلام اللورد بقسطاس العدل يعلم انه فاسد لا يعتدّ به كما لا يعتدّ في سائر مباحث كتابه . لانَّ من نظر الى القرآن نظر المنصف يجد أَن ماجاء بهِ من الاحكام والمعاملات لا غبار عليهِ بل هو صالح للعمل بهِ في كل زمان ومحيط كما شهد له بذلك الاغيار من علماء اوروبا وغيرهم كما سنورد عليك طرفاً من ذلك في باب مخصوص نعقده لهذه الغاية

وقد جاء في كتاب « الشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية »

تأليف علي بك ابي الفتوح احد علماء القوانين العاملين بها في محكمة الاستئناف بمصر قوله في اول الكتاب :

« يظن كثير من الناس حتى من المسلمين انفسهم ان المبادىء المقررة في الشريعة الغراء لا توافق هذا الزمان الذي بلغ فيهِ الانسان من التمدن والترقي درجة رفيعة ، ويتوهمون أن الاحكام والروابط الموجودة في القوانين الحديثة الوضعية لا مقابل لها في الاصول الاسلامية ، وانما هي بمثابة الاختراعات المادية الجديدة التي انتجها فكر علماء الغرب لم يسبقهم اليها احد ، ولكن الباحث في الفقه الاسلامي ولو قليلاً لايلبث ان يغير هذا الظن ويتحقق ان اسلافنا وصلوا في الرفاهية وتقرير المبادي العمرانية والاجتماعية والقضائية شأواً قلّما يجاريهم فيهِ احد ، الاّ انّ صعوبة كتب المتأخرين وكيفية تأليفها وما هي عليهِ من التعقيد قد أوصد الباب في وجه مَن يُريد الوقوف على حقيقة الشريعة الغراء غير المنقطعين لدراستها ، ولذلك فاني اشير على من يسلك هذا الطريق ان يقصد التآليف القديمة لانها اسهل مورداً واغزر مادة مع خلوّها من التعقيد وبعدها من المشاغبات اللفظية وليترك هذه الكتب الحديثة للمنقطعين لفهمها بدون ملل ولا حساب للوقت[1] ... »

---

(١) اقول : كنت قد كتبت في هذا الموضوع : موضوع كتب التعليم —

اذكر هذا على اثر مطالعتي لكتاب الخراج للامام ابي يوسف المتوفّى سنة ١٨٢ هجرية وقد ألّف هذا السفر الجليل برسم امير المؤمنين هرون الرشيد ، وفيه من النصائح والاحكام ما يجدر بامراء المسلمين اتباعه والعمل به (لعله يعرض بالحكومة المصرية وعدولها عن العمل بالشريعة الى القوانين الوضعية مع ان اكثرها موافق للشريعة بل مسلوخ عنها)

عثرت في هذا المؤلف الصغير الحجم على درر كثيرة لا ابخل بنظمها في هذه المقالة حتى يرى المسلمون وخصوصاً المشتغلين منهم بالقوانين الافرنجية أن المتقدم لم يترك شيئاً للمتأخر ، ولعلهم ينكبّون على دراسة الشريعة والآداب الاسلامية لانهما لا ينافيان العصر الحاضر ولا المدنية الحديثة اذا فهما حقّ الفهم ودُرسا بعقل وتمييز »

— الدبني والآلي‑ ايام كنت في مصر منتظما في سلك طلبة الازهر سنة ١٣٢١ للهجرة و ١٩٠٣ للميلاد : اربع مقالات مطولة انتقدت فيها طرق التعليم في الازهر والكتب التي تدرس فيه وابنت باجلى بيان عقمها وسوء مغبتها واثرها في نفس المتعلم ، واقترحت على اولياء الامور في ذلك المعهد الاسلامي ان يرجعوا الى كتب المتقدمين فان مافيها من العلم وسهولة المآخذ خير من كتب المتأخرين — وهذا هو عين ما يطلبه جناب البيك المومى اليه — فانتقدعليّ اذ ذاك قوم بما لا يخرج عن حد المكابرة ، وعضدني آخرون . ومن اراد تلك المقالات فليرجع اليها في العدد الصادر في ١٠ جمادي الاولى من السنة المتقدمة فصاعداً . وربما نمثّلها للطبع ان شاء الله تعالى .

الى آخر ما قال

وقد ردّ المؤلف في رسالتهِ على اهل القوانين الذين يظنون ان هذه المسائل من اوضاع علماء اوروبا المتأخرين وأبان انها مسلوخة عن القوانين الاسلامية والاحكام الشرعية سلخاً .

وقالت بعض المجلات في تقريظ الرسالة التي نقلنا عنها ما تقدم:

« هذه مجلة الاحكام العدلية التي الفتها لجنة من علماء المسلمين هي احسن من القانون المدني الفرنسي ، وقد امر (الخليفة ايده الله) بالعمل بها عند ما اسس نظام العدلية وابطل الامتيازات الاجنبية ، فلماذا لم تتبعه الحكومة الخديوية بل اختارت على احكام الشريعة الاسلامية قانون الحكومة الفرنسوية » اه

فسقط بما قدمناه وهمُ جناب اللورد في الاسلام من حيث هو شريعة ومعاملات ولم يبق له شيء يستند عليهِ في الاعتراض الا بعض ما كتبه الفقهاء المتأخرون وذلك مما نوافقه عليهِ وليس من موضوع اللورد لانه يعترض على نفس القرآن وقواعد الدين الاساسية .

قال جناب الدكتور شبلي افندي شميل المسيحي الكاتب الاجتماعي :

« ان في القرآن اصولاً اجتماعية عامة وفيها من المرونة ما يجعلها صالحة للاخذ بها في كل زمان ومكان حتى في امر النساء فانه كلفهنّ بان يكنّ محجوبات عن الريب والفواحش وأوجب على الرجل ان

يتزوج واحدة عند عدم امكان العدل ، وان القرآن فتح امام البشر ابواب العمل للدنيا والآخرة ولترقية الروح والجسد بعد ان أوصد غيره من الاديان تلك الابواب ، فقصر وظيفة البشرية على الزهد والتخلي عن هذا العالم الفاني » اهـ

لو ان جناب اللورد انتقد تلك الزيادات التي شوّه بها وجه الدين اولئك البسطاء لاصاب المرمى وكان يضرب على الوتر الذي يضرب عليهِ محبّوا الاصلاح الديني من المسلمين والرجوع بالدين الى بساطته الاولى ، ولكنه تطوح وجاوز ذلك الحمى ، فكان رأيه بالاسلام من حيث هو دين وأدب على طرفيْ نقيض . ولكنه انحى عليهِ انحاءً شديداً وقبحه تقبيحاً عنيفاً من حيث هو شريعة اي معاملات وسياسة ، وقال انه لا يصلح الا لذلك الزمن والمحيط اللذين وجد فيهما . فحاد عن جادة الصواب وعدل عن المنهج القصد عدولاً تاماً في هذا الحكم الجائر الذي ليس له نصيبٌ ما من الحقيقة ، ولو انه قال في هذا الموضوع كما قال في ذاك من وجوب تحويره وتنقيحه والرجوع به الى السذاجة الاولى اي العمل بمقتضى القرآن الكريم لاصاب كبد الحقيقة وأنصف في مقاله وجرى مع المصلحين من العلماء في مجرى واحد ، لانهم يبذلون جهدهم ويسعون طاقتهم لارجاع المسلمين الى طريقة القرآن لان ما فيه من الاحكام

والشرائع صالح لكل زمان ومكان · ومن لم يقنع بذلك فليأتنا بحكم من القرآن يخالف مدنية هذا العصر القويمة التي تنطبق على العقول السليمة التي لا تميل مع الاهواء ولم تشبها شائبة التعصب ، بل فليأتنا بحكم من الاحكام التي دونها الفقهاء المتقدمون كابي حنيفة وابي يوسف والشافعي ومالك وغيرهم من اساطين الامة ، لا ارى احدا يستطيع ذلك ولو بقي دهره يقلب الصفحات ويدرس الكتب ، فليترك المتعصبون تشدقهم واوهامهم وتغريرهم انفسهم وقومهم ·

— هذا الامام مالك رضي الله عنه يعد المصالح المرسلة (١) اي المطلقة اصلاً من اصول ادلة الشرع بمعنى ان المصلحة تُراعى ولو خالفت النصّ ، لان حكم الله انما شرع لمنفعة العباد ، ويعد سدّ الذرائع

(١) جاء في الحواشي التي كتبها على رسالة «المصالح المرسلة» للطوفي صديقنا الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي ما نصه : والمراد بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع بدفع المفاسد عن الخلق ، وقد اشتهر القول بها عن مالك احتجاجاً بان الله تعالى انما بعث الرسل عليهم السلام لتحصيل منفعة العباد عملاً بالاستقراء فمهما وجدت مصلحة غلب على الظن انها مطلوبة للشرع · واشتهر عن الجمهور القول بمنعها مطلقاً · وقال ابن برهان : ان لائمت اصلاً كلياً او جزئياً من اصول الشرع جاز الحكم عليها والا فلا · وقال الغزالي : ان كانت ضرورية قطعية كلية اعتبرت والا فلا · قال القرافي : ان المصلحة المرسلة في جميع المذاهب عند التحقيق ، لانهم يقيسون ويفرقون بالمناسبات ولا يطلبون شاهداً بالاعتبار ولا يُعنى بالمصلحة المرسلة سوى ذلك

اصلاً كذلك[١].

قال الطوفي في رسالة « المصالح المرسلة » :

« ثم ان قول النبي صلى الله عليهِ وسلم « لا ضرر ولا ضرار » يقتضي رعاية المصالح اثباتاً ونفياً والمفاسد نفياً ، اذ الضرر هو المفسدة فاذا نفاها الشرع لزم اثبات النفع الذي هو المصلحة لانهما نقيضان لا واسطة بينهما » الى ان يقول :

« ورعاية المصلحة المستفادة من قوله عليهِ السلام : « لا ضرر ولا ضرار » وان خالفاها (يعني النص والاجماع) وجب تقديم رعاية المصلحة عليهما بطريق التخصيص[٢] والبيان لهما لا بطريق الافتئات

---

(١) الذرائع : جمع ذريعة وهي الوسيلة للشيء . قال في الحواشي السالفة الذكر : ومعنى ذلك حسم مادة وسائل الفساد دفعاً له فمتى كان الفعل السالم عن المفسدة وسيلة الى المفسدة منعنا من ذلك الفعل . واشتهر ان القول بسد الذرائع من خصائص مذهب مالك رحمه الله . وقد حقق القرافي انه مشترك بين المذاهب كالمصلحة المرسلة والعرف »

(٢) جاء في الحواشي السابقة الذكر ما خلاصته : يقرب من هذا ما قاله الفقهاء الحنفية ، عليهم الرحمة في التعامل وانه يخص به الاثر ، والتعامل من باب المصلحة المذكورة قال في الذخيرة البرهانية والتعامل حجة يترك به القياس ويخص به الاثر ، وتخصيص النص بالتعامل جائز . وقد ذهب البخاري عليه الرحمة مع كونه من اعظم انصار الاثر الى اعتبار العرف في ترجمة ذلك الباب الذي قل من يتفطن له ومن دقق في تلك الترجمة رأى انها تؤيد ما اشار له الطوفي هنا .

عليها والتعطيل لهما كما تُقدّم السنة على القرآن بطريق البيان، وتقرير ذلك : ان النص والاجماع إما ان لا يقتضيا ضرراً ولا مفسدةً بالكلية او يقتضيا ذلك ، فان لم يقتضيا شيئاً من ذلك فهما موقوفان لرعاية المصلحه ، وإن اقتضيا ضرراً فإما أن يكون مجموع مدلولهما ضرراً ، ولا بد ان يكون من قبيل ما استُثني من قوله عليهِ السلام « لا ضرر ولا ضرار » جمعاً بين الادلة الخ

اقول : يعني بذلك انه إن وجدت مصلحة للامة تخالف النصّ او الاجماع فتُراعى المصلحة ، ومراعاتها لا لعدم رعايتهما بالكلية ، بل لاننا نقول : ان النص والاجماع بمنزلة العام ورعاية المصلحة الثابتة بالدليل بعض مخصصات هذا العام فالعمل بها لا ينافي العمل بالنص والاجماع ، لان حديث : لاضرر ولا ضرار : هو بمنزلة أن يقال بعد كل حكم نُصّ عليه : الا ان اقتضت المصلحة خلافه

ثم قال الامام الطوفي في تعريف المصلحة عرفاً وشرعاً :

« واما حدها بحسب العرف فهو السبب المؤدي الى الصلاح والنفع كالتجارة المؤدية الى الربح وبحسب الشرع هي السبب المؤدي الى مقصود الشارع عبارة او عادة .

ثم هي تنقسم الى ما يقصده الشارع لحقه كالعبادات ، والى ما لا يقصده الشارع لحقه كالعادات

ثم ذكر اهتمام الشرع الشريف برعاية المصالح فقال :

« واما بيان اهتمام الشرع بها فمن جهة الاجمال والتفصيل :

اما الاجمال فقوله عزَّ وجلّ : « يا ايها الناسُ قد جاءتكم موعظةٌ من ربكم وشفاءٌ لِما في الصدور وهدىً ورحمة للمؤمنين . قل بفضل اللهِ وبرحمته فبذلك فليفرحوا ، هو خير مما يجمعون »

ودلالتهما (يعني هاتين الآيتين) من وجوه :

احدها قوله عزَّ وجل « قد جاءتكم موعظة » حيث انه توعدهم وفيه اكبر صالحهم ، اذ في الوعظ كفُّهم عن الاذى وارشادهم الى الهدى

الوجه الثاني : وصفُ القرآن انه « شفاء لما فى الصدور » يعني من شك ونحوه وهو مصلحة عظيمة

الوجه الثالث : وصفه بالهدى

الوجه الرابع : وصفه بالرحمة ، وفي الهدى والرحمة غاية المصلحة

الوجه الخامس : اسناد ذلك الى فعل الله عزَّ وجل ورحمته ، ولا يصدر عنهما الا مصلحة عظيمة

الوجه السادس : الفرح بذلك لقوله عزَّ وجل : « فبذلك فليفرحوا » وهو فى معنى التهنئة لهم بذلك ، والفرح والتهنئة انما يكونان لمصلحة عظيمة

الوجه السابع : قوله عزّ وجل : « هو خير مما يجمعون » والذي يجمعون هو من مصالحهم ، فالقرآن ونفعه اصلح من مصالحهم والاصلح من المصلحة غاية المصلحة ٠

فهذه سبعة اوجه من هذه الآية (الصواب من هاتين الآيتين) تدل على ان الشارع راعى مصلحة المكلفين واهتمّ بها ولو استقرأت النصوص لوجدت على ذلك ادلة كثيرة » اه

ثم ذكر الطوفي في الرسالة نفسها بيان اهتمام الشارع برعاية المصالح العامة على سبيل التفصيل ومن ارادها فليرجع الى رسالته ، غير اننا نذكر منها مبحثاً واحدا ، قال :

« المبحث الرابع في ادلة رعاية المصلحة على التفصيل وهي من الكتاب والسنة والاجماع والنظر ، ولنذكر من كل منها يسيرا على جهة ضرب المثال اذ استقصاء ذلك بعيد المنال :

اما الكتاب فنحو قوله تعالى : « ولكم في القصاص حياة ٠ والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما ٠ الزانية والزاني فاجلدوا كلّ واحد منهما مائة جلدة » وهو كثير ٠ ورعاية مصلحة الناس في نفوسهم واموالهم واعراضهم مما ذكرنا ظاهر ٠ وبالجملة فما من آية من كتاب الله عزّ وجل الا وهي تشتمل على مصلحة اومصالح » الخ ماقال

اقول : اراني قد اطلت في هذه المسأَلة المهمة وهي مسألـة رعاية المصالح العامة ، ولكن المقام اقتضى ذلك لاظهر لجناب اللورد ومن على شاكلته ان الدين الاسلامي سهل مَرِنٌ لا كما يصفه بهِ من عدم المرونة والصلاح لكل وقت ومكان · فانت ترى ان من قواعد الشريعة المطهرة تحكيم العادة ورعاية المصلحة وان خالفت النص والاجماع ، وهي في الحقيقة لم تخالفه كما قدمنا بل ان لرعاية المصلحة ادلةً صحيحةً في الكتاب والسنة فمتى وجد نصٌّ يخالف ظاهره المصلحة نعدل عن عمومه الى رعايتها لان دليلها مخصص لعموم النص · اذن لا يوجد نص في الشريعة يخالف المصلحة العامة فهو مرن صالح للتعامل لا كما يزعم جناب اللورد

ذلك هو الذي يفهم من كتاب الله وسنة رسوله وكلام الصحابة وائمة الفقهاء المتقدمين بل وكثير من اكابر المتأخرين غير ان جهل بعض الفقهاء المتأَخرين هو الذي جرّاء امثال كرومر على الطعن بهِ ووصفه بما لا ينطبق عليهِ بوجه من الوجوه ·

ومما زاد المسلمين بلاءً على بلائهمّ أَن هؤلاء المتأَخرين أَوصدوا الباب دون من يروم ان يأْخذ دينه من كتـاب الله وسنة رسوله بحجة ان الفقهاء قبله قد استخرجوا تلك الاحكام ولم يبقَ عليهِ الا ان يأْخذ بها ويتمسك باهدابها ويعتصم بعُراها ، ثم ادعت هـذه

الطائفة انه لا يمكن ان ينبغ احد من العلماء لدرجة أنه يمكنه الاستنباط من الكتاب والسنة ، ولم يعلم هؤلاء القوم ان فضل الله يؤتيه من يشاء في كل زمان ومكان ، وان الاحكام تختلف باختلاف الازمان وان حكم الله يدور مع المصالح العامة ، واما حكم الفقهاء الذي استندوا فيهِ على القياس او الاجتهاد البحت لا يناسب الا الزمان الذي كانوا فيه . وقد نسي اولئك المانعون ان العلماء المتقدمين اوجبوا ان يوجد في كل عصر مجتهدون يشرحون للناس ما يناسبهم من احكام الدين والدنيا ، وحرَّموا ان يأْخذ احد باقوالهم ان لم تكن مستندةً الى الدليل ، فما بال الفقهاء المتأَخرين عدلوا عن الكتاب والسنة بل وعن أَقوال مَن يدعون انهم مقلّدون لهم — كان عمر بن الخطاب الخليفة الثاني بعد النبي صلى الله عليهِ وسلم اذا سُئل عن شيء يقول : هل وقع ؟ فان كان واقعاً أَفتى السائل وان لم يكن وقع يقلْ له : دعها حتى تقع . وانما يقول له ذلك لان الاحكام تختلف باختلاف الزمان بل والمكان ، فان افتاه رضي الله عنه بمسئلة لم تحدث فربما حدثت بعد ذلك فيفتي قوم بما حكم بهِ عمر رضي الله عنه وربما ان فتواه لا تناسب الزمان او المكان الذي حدثت فيه مع انه افتى بها لزمانه ومحيطهِ — وقد ثبت انهُ (رضه) افتى في مسأَلة بحكم ثم تكررت فتبدَّل نظره فيها فحكم بخلافهِ وقال : تلك على ما قضينا

وهذه على ما نقضي — هكذا كان هديُ السلف الصالح وهكذا كان مبلغ عقلهم وعلمهم وفهمهم — ألم ترَ أن أئمة العلماء المجتهدين كابي حنيفة ومالك والشافعي واحمد بن حنبل كانوا ينهون أن يقلدهم احد الا بعد ان يعرف دليلهم ومأخذهم ، ومتى عرف ذلك خرج عن كونه مقلداً لان المقلد هو من يأخذ الحكم ولم يعرف دليله

وقد اجمع اهل الاصول على ذلك واطنبوا فيه في كتبهم . ونحن نذكر لك طرفاً من ذلك من قول سيدي محي الدين بن عربي الشهير في رسالة له في اصول الفقه وانما اخترناها دون غيرها من كتب الاصول لانها غير مشتهرة كاشتهار تلك الكتب . — قال رحمه الله تعالى :

« لا يؤخذ من الحديث الا ما صح » ثم قال بعد كلام : « واما اذا صح الحديث وعارضه قول صاحب او امام فلا سبيل الى العدول عن الحديث ، ويُترك قول ذلك الامام او الصاحب للخبر » ثم قال :

« ولا يجوز ترك آية او خبر صحيح لقول صاحب او امام ، ومن يفعل ذلك فقد ضلَّ ضلالا مبيناً وخرج عن دين الله » — ثم قال :

« وما اوجب الله علينا الاخذ بقول احدٍ غير رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ، مع كوننا مأمورين بتعظيمهم ومحبتهم » — ثم قال في موضع آخر منها :

« لا يجوز ان يُدان الله بالرأي وهو القول بغير حجة ولا برهان

لا من كتاب ولا سنة ولا اجماع » — ثم قال فى موضع آخر :

« التقليد فى دين الله لا يجوز عندنا لا تقليد حي[١] ولا ميت ويتعين على السائل اذا سأل العالم ان يقول له : اريد حكم الله او حكم رسوله في هذه المسألة فان قال المسؤول هذا حكم الله في هذه المسألة او حكم رسوله تعين عليهِ الاخذ به » الخ ما قال :

اقول : هذا السبب — وهو هجر العمل بالكتاب والسنة ووجوب التقليد والعمل بقواعد الفقهاء — من اعظم الاسباب التي اودت ببقية الروح التي كانت مختلجة في جسم الاسلام ومرفرفة فوق عقول المسلمين — وياليت الامر انتهى الى هذا الحد فقط ، بل بلغ الجهل والتعصب ببعض من ينتسب للعلم الى حدٍّ حرموا معه الاشتغال بغير علوم الدين — اقول علوم الدين مجاراةً لهم لانهم يقصدون بها اقوال متأخري الفقهاء وفيها من الآراء ما لا يستند الى كتاب ولا سنة بل كثير منها مخالف لهما ، ولو انهم ارادوا بعلوم الدين القرآن والحديث الصحيح لكان قولهم حقيقة لا يمتري فيه اثنان

---

(١) هذا مذهب طائفة من العلماء وعليه الشيخ رحمه الله كما هو نص كلامه وقال غيرهم : يجوز تقليد الحي دون الميت ، وهذا رأي الجمهور . واجاز بعضهم تقليد الميت والحي وهو قولٌ في غاية الضعف . وقد اتخذه حجةً فقهاء اليوم توفيرًا لعناء البحث والزيادة من العلم

لان علوم الدين الحقيقية هي كل ما يعين على فهم الكتاب والسنة فيدخل فى ذلك علوم اللسان والاخلاق والسياسات بفروعها والطب والطبيعيات والجغرافيا والفلك وجميع ما يسمونه اليوم بالعلوم الكونية او العصرية ، فجميعها من علوم الدين لان آيات القرآن والسنة اشارت الى كثير منها او صرحت بهِ كما قدمنا ذلك ببعض تفصيل ، وليس الدين قاصرا على مايزعمون من العبادات والمعاملات — اقول عبادات مجاراةً لهم والا فليست من العبادة في شيء لانهم تمسكوا بقشورها وتركوا لبابها وهو المقصود منها ، فقد ظنوا انها عبارة عن تلك الاعمال البدنية التي هي اشبه شيء بالرياضة ، ولم يعلموا ان لكل حركة منها اشارةً خاصة الى معنى اسمى وامرٍ اعلى ، فالوضوء والغسل مثلاً يُراد بهما امرٌ اهمّ من نظافة الاعضاء وهو تطهيرها من اجتراح السيئات وكسب الاعمال المنكرات ، وتنظيف القلب من الاخلاق الفاسدة والصفات الممقوتة ، الى غير ذلك من المقاصد العالية ، والمعاني السامية ، وقس على ذلك الصلاة والصيام والحج وليس هذا موضع تبيانها ، ومن شاء حقائقها فليرجع الى كتاب الاحياء للامام الغزالي عليه الرحمة .

ظن هؤلاء الاقوام ان علوم الدين هي ما يزعمون ولو كان الامر كذلك لاستوى العالم والجاهل ، والورع والمتساهل — فالخلاصة

ان علوم الدين هي كل ما يُعين على فهم القرآن والاحاديث الثابتة، وهي ليست قاصرة على الفقه وعلوم اللسان ، بل تعم كل علم اشار لبعض جزئياته الكتاب الشريف ، والحديث المنيف

اتى اللورد كرومر في كتابه ببعض المسائل التي انحى بها على الدين من حيث هو شريعة ومعاملات . وبعضها موجود فيه وبعضها غير موجود وبعضها كان الخطأ في فهمه سبباً للانتقاد والذنب فيهِ ليس على اللورد بل على من تلقَّف هذا الحكم عنهم — وسنناقش جناب اللورد في كل ذلك حتى تنقشع سحابات الوهم عن فكره ، وينكشف لثام الحقيقة فتبدو غرّاء الطلعة وضّاحة الجبين ، فيظهر للورد كرومر ومن على شاكلته انهم كانوا مخطئين في حكمهم على الدين الاسلامي ذلك الحكم الجائر — واما ما اخذ به على المسلمين انفسهم فاننا نوافق على اكثره والذنب فيه عليهم لان دينهم يأمرهم بخلاف ماهم فيهِ الآن من الكسل وعدم السعي الى العلم السعي المشكور الى غير ذلك — قال المؤرخ الشهير والباحث المنصف جرجي افندي زيدان صاحب مجلة الهلال الشهيرة ما نصه : « ان مظاهر المسلمين هي التي تحتمل النقد ، وهي التي يحسن ان يؤاخذوا بجرائرها . اما القرآن نفسه فليس فيهِ ما يؤخذ عليهِ ولا يوجد بين آياته تناقض حقيقي » اه

بعض شهادات الاغيار في الاسلام

وانه منبع التمدن الصحيح

لست اقصد من ايراد شهادة الاغيار في الدين الاسلامي الاستدلال على انه دين التمدن والعلم حقاً لان ذلك معروف مشهور لاينكره الا مكابر ، وانما اقصد بذلك ان عقلاء الامم الاوروبية الذين رفعوا عن قلوبهم ستائر التعصب عرفوا ان القرآن هو منبع المدنية وان الاسلام روح الرقي في كل زمان ومكان . ولو اردت ان أورد جميع شهادات الاجانب لضاق المقام خصوصاً وان جمعاً منهم قصروا انفسهم للدفاع عن الاسلام وألفوا في ذلك المؤلفات الضخمة المنتشرة بانحاء اوروبا ، فلذا أكتفي ببعض شهادات من اشهر علمائهم وفلاسفتهم وقسيسيهم :

قال اسحق طيلر رئيس الكنيسة الانكليزية ببلاد الانكليز من خطاب فاه بهِ في مؤتمر الكنيسة :

« الاسلام ينشر لواء المدنية التي تُعلّم الانسان مالم يعلم ، والتي تقول بالاحتشام في الملبس ، وتأمر بالنظافة والاستقامة وعزة النفس ، فمنافع الدين الاسلامي لا ريب فيها ، وفوائدها من اعظم اركان المدنية ومبانيها »

وقال كارليل :

« ان القرآن كتاب لا ريب فيه ، وان الاحساسات الصادقة الشريفة والنوايا الكريمة تُظهر لي فضل القرآن — الفضل الذي هو اول وآخر فضل وجد في كتاب نتجت عنهُ جميع الفضائل على اختلافها — لا بل هو الكتاب الذي يقال عنهُ في الختام : وبه فليتنافس المتنافسون ، لكثرة ما فيهِ من الفضائل المتعددة .

وقال واشنطون ايرفنج :

القرآن فيهِ قوانين زكية سنية »

وقال جيبون :

« القرآن مُسلَّم بهِ من حدود الاقيانوس الاتلانتيكي الى نهر الجانجس بانه الدستور الاساسي ليس لاصول الدين فقط بل للاحكام الجنائية والمدنية ، وللشرائع التي عليها مدار نظام حياة النوع الانساني وترتيب شؤونه »

وقال ايضاً :

« ان الشريعة المحمدية تشمل الناس جميعاً في احكامها من اعظم ملك الى اقل صعلوك ، فهي شريعة حِيكت باحكم واعلم منوال شرعي لا يوجد مثله قط في العالمين »

وقال دروي :

« بينما اهل اوروبا تائهون في ظلام الجهاله لا يرون الضوء الا من سَمِّ الخياط اذ سطع نور قوي من جانب الامة الاسلامية من علوم وادب وفلسفة وصناعات واعمال يد وغير ذلك ، حيث كانت مدينة بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان ومصر وفارس وغرناطة وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة المعارف . ومنهـا انتشرت في الامم واغتنم منها اهل اوروبا في القرون الوسطى مكتشفاتٍ وصناعاتٍ وفنوناً عظيمة ...... »

وقال سيديو :

« وبعد ظهور النبي (محمد صلى الله عليهِ وسلم) الذي جمع قبائل العرب امة واحدة تقصد مقصداً واحداً ظهرت للعيان امة كبيرة مدَّت جناح ملكها من نهر (تاج) باسبانيا « الاندلس » الى نهر (الفانج) في الهند « اي من نهاية المشرق الى اول المغرب » ورفعت اعلام التمدن فى اقطار الارض ايام كانت اوروبا مظلمة بجهالات اهلها »

وقال غوستاف لوبون :

« ان العرب هم سبب انتشار المدنية ببلاد اوروبا »

يريد بالعرب المسلمين وانما اتى بلفظ العرب لانهم لم يصلوا

لذلك الا بعد ان اعتصموا بعروة الاسلام وتمسكوا بقواعد القرآن

وقال « داود اركوهارت » :

« ان الاسلام دين لا يأمر باتباع عقائد جديدة ، ولا يقول بانزال وحي جديد ، وسنن جديدة ، وليس فيهِ كهنوتيه ، او معابد سياسية ، بل فيه دستور الامم ونظام الممالك »

وقد عربت جريدة اللواء المصرية الجملة الآتية عن كتاب عنوانه « ثلاثون عاماً في الاسلام ، ألّفه « مسيو ليون روش » السياسي الفرنسي الذي اقام في بلاد المسلمين ثلاثين سنة تعلم في اثنائها اللغة العربية وفنونها وقرأ العلوم الاسلامية وعاشر المسلمين في الجزائر وتونس والاستانة ومصر والحجاز ولا شك انه قد اختبر بهذه المدة الطويلة احوال المسلمين من سائر الطبقات فهو اذا كتب يكتب عن روية وحكمة ومعرفة لا كما كتب اللورد كرومر من الاوهام والكذب والخلط لان روح التعصب كانت ترفرف فوقه عند ما كان يكتب كتابه « مصر الحديثة »

قال المسيو (ليون روش) المتقدم :

« اعتنقت دين الاسلام زمناً طويلاً لأُدخل عند الامير عبد القادر دسيسة من قبل فرانسا وقد نجحت في الحيلة فوثق بي الامير وثوقاً تاماً واتخذني سكرتيرا ، فوجدت هذا الدين الذي يعيبهُ الكثيرون

افضل دين عرفته فهو دين انساني طبيعي اقتصادي ادبي ، ولم اذكر شيئًا من قوانيننا الوضعية الا وجدته مشروعاً فيه ، بل انني عدت الى الشريعة التي يسميها جول سيمون الشريعة الطبيعية فوجدتها كأنها أُخذت عن الشريعة الاسلامية اخذًا ، ثم بحثت عن تأثير هذا الدين في نفوس المسلمين فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة ووداعة وجمالاً وكرماً ، بل وجدت هذه النفوس على مثال ما يحلم به الفلاسفة من نفوس الخير والرحمة والمعروف في عالم لا يعرف الشر واللغو والكذب . فالمسلم بسيط لا يظن باحد سوءًا ، ثم هو لا يستحلّ محرماً في طلب الرزق ولذلك كان اقلّ مالاً من الاسرائيليين ومن بعض المسيحيين.

ولقد وجدت فيهِ حلّ المسئلتين الاجتماعيتين اللتين تشغلان العالم طرًّا : الاولى في قول القرآن « انما المؤمنون اخوة » فهذا اجمل مبادىء الاشتراكية ، والثانية فرض الزكاة على كل ذي مال وتخويل الفقراء حق اخذها غصباً ان امتنع الاغنياء عن دفعها طوعاً[1] وهذا

---

(١) اقول ليس الامر كما قال فان الشريعة لم تمنح الفقير ان يغتصب الزكاة من الاغنياء ان امتنعوا عن دفعها بل ذلك مفوض الى الحاكم فهو يأخذها غصبًا ويدفعها الى اهلها من الفقراء والمساكين الخ ، بل له ان يقاتلهم عليها ان اقتضت الحال ذلك كما قاتل ابو بكر رضي الله عنه مانعي الزكاة ، واكثر حروب اهل الردة التي كانت في زمنه رضي الله عنه كانت لاجل منع الزكاة وقد سمي مانعيها مرتدين .

دواء الفوضوية ٠

ثم ذكر المؤلف عشقه لفتاة جزائرية وعشقها اياه وكيف قتلت نفسها لما انبأها بامره وانه يرغب ان يرحل بها الى فرنسا عند قضاء مهمته الى ان يقول :

« ذلك من تأثير هذا الدين الكريم ، انه دين المحامد والفضائل ولو انه وجد رجالاً يعلمونه الناس حقَّ التعليم ويفسرونه تمام التفسير لكان المسلمون اليوم ارقى العالمين واسبقهم في كل الميادين ٠ ولكن وجد بينهم ويا للاسف شيوخ يحرفون كلمه ويمسخون جماله ويدخلون اليهِ ما ليس منه ، واني تمكنت من استغواء بعض هؤلاء الشيوخ في القيروان والاسكندرية ومكة فكتبوا الى المسلمين في الجزائر يُفتونهم بوجوب الطاعة للفرنساويين وبان لا ينزعوا الى ثورة وبان فرنسا خير دولة أُخرجت للناس ، وكل ذلك لم يكلفني غير بعض الآنية الذهبية

مثل هؤلاء الشيوخ الذين يحسبون هذا الدين ملكاً لهم لا ينبغي لغيرهم شرحه وتفسيره — مثل هؤلاء الشيوخ الذين يقاومون المصلحين ويعدون كل تأويل غير تأويلهم كفراً والحاداً — مثل هؤلاء الشيوخ هم علة تأخر الاسلام والمسلمين ٠ الخ ما قال

وعرَّب صديقنا الدكتور عبد الرحمن افندي شهبندر الدمشقي

من مجلة الملل والنحل الصادرة في (مارس) اذار سنة ١٩٠٥ ما يأتي تحت عنوان « هداية استاذ للاسلام »

« لدينا الآن رسالتان بقلم الاستاذ « نشكنتابا دهيايا » الرئيس الماضي لكلية حيدر اباد (واستاذ التاريخ في كلية مهراجا في ميسوري) والاولى موضوعها « لماذا انتحلت الاسلام » والثانية « محمد نبي الاسلام » وقد اصبح اسم المؤلف بعد اسلامه محمداً عزيز الدين ، وهو من العلماء الافاضل الذين ساحوا في البلاد زمنا طويلا ودرسوا الاديان المختلفة ، وفي الرسالة الاولى ذكر اسباب هدايته واتخاذه الاسلام دينًا لا يُبارى في الصحة والسلامة .

كان المؤلف في اول امره شديد الاعجاب بمذهب العقليين لكنه لم يلبث ان تحوّل لان هذا المذهب لم يروِ له غليلاً فاخذ في درس الدين البوذي واعجب بظاهر رفعتهِ الاخلاقية لكنه وجده اخيراً على عكس طبيعة البشر فملّه ، وكان ذلك اثناء وجوده في البلاد الالمانية حيث القى خطابين موضوعهما البوذية بلغة تلك البلاد ، ومن ثمَّ ذهب الى باريس وبطرسبرج وبعد ما تعلم الافرنسية اعجب برنان وكان من تأثير ذلك انه اخذ في درس لغات الساميين واديانهم وكرّس قسماً عظيماً من حياته لدرس المقابلة بين الاديان العظيمة يعني اليهودية والزردشتية والبرهمية من الجهة الواحدة والبوذية

والنصرانية والاسلام من الجهة الاخرى · ووقف في سبيله الى التنصر مسألة الفداء ومسألة الهلاك الابدي وما يضاف اليهما في الكاثولوكية من اعتقاد العصمة البابوية والتحوّل في العشاء الرباني · ثم رجع الى البلاد الهندية على هذه الحال من تبلبل الفكر ، وهنالك فرّغ نفسه مدة لدرس الرياضة (التصوف) لكنه عاد منها ايضاً غير مقتنع ، ولم يُعطِ البوذية والاسلام حقهما من الدرس حتى ذلك الحين فدرس الاولى منهما ثم جاء الى الاسلام الذي استماله اخيراً واثّر في نفسه اثراً باقياً ، وكان قد شعر بصحته منذ مدة طويلة ، ولكن الظروف الخارجية منعته من التصريح بذلك حتى الثامن والعشرين من شهر آب (اغسطس) حين صرّح في محفلٍ بدخوله في الاسلام برسالته « لماذا انتحلت الاسلام »

وبنى رضاه بالاسلام على ثلاثة ابواب رئيسة (١) صحة اخبار الاسلام وانه الدين التاريخي الوحيد (٢) موافقته للعقل (٣) انه عملي (لا خيالي) · ويقول في رسالته « ان ميدانه التاريخي قد اثّر حتى في اعداء محمد واتباعه » واستشهد بكلام للاستاذ (بسورث سمث) ذُكر في خُطَبه وهو « اننا في الحقيقة نعرف بعض نُتف من تاريخ المسيح ولكن انىّ لنا من يكشف الحجاب عن السنين الثلاثين التي اعدت الطريق الى الثلاث · · · · وفي الاسلام كل شيء على خلاف

ذلك . هنا يقوم التاريخ بدلاً من الغامض المظلم . . . . وهنا لا تُضلّ المرء نفسه او غيره من الناس لانّ نور النهار يسطع على كل ما يمكن ان يصل اليه »

والنقطة الثاني في بحثه جريُ الاسلام على قواعد العقل وقد ذكر القاعدتين الاساسيتين في الدين — توحيد الله ورسالة النبي محمد — وقال : « يجب على كل صحيح عاقل ان ينقاد لهذه الحقيقة البسيطة الجليلة وهو توحيد الله الخالص (لا كتوحيد اليهود الذين جعلوه إلهاً خاصاً بهم) ولا يوجد في الاسلام تعاليم مثل « ثلاثة في واحد ، او ثلاثين مليوناً من الآلهة »

ولا يردُّ قاعدةَ الرسالة النبوية باحث لانه « متى نُسيت الحقائق الاساسية التي تُبنى عليها الحياة الاخلاقية الدينية او أُبهمت ، ومتى اصبح الانسان مفرطاً في حب دنياه طامعاً سيء الاخلاق مادياً بحتاً — يظهر في تاريخ الامم اناس اخلاقيون احيتهم الروح الخالصة في مولدهم ونشأتهم حتى يصبحوا انبياء ورسلا لله ووظيفتهم تذكير الناس ما كانوا نسوه واحياء ما كانوا فقدوه . ويضاف الى ذلك كله ان الاسلام على طبق حياة الانسان العلمية . وربما توهّم الناس فى بعض الاحيان ان تعاليم بوذا والمسيح على احسن الكمال لكن هذا خطأ وهذه التعاليم اشبه بالكمالات الباردة الواردة في القصص

والروايات وربما كان فيها (جمال شعري) الا انه لا يُعدُّ طريقة لحكم الانسان المدني الصناعي على صحة التعاليم والمبادي : فمن الواجب علينا ان ننظر الى حالات البشر اولاً ثم نحكم على كمال التعاليم بالنسبة لفائدتها . وعلى هذا المبدأ تماماً (يعني النظر الى حاجات البشر) اباح الاسلام تعدد الزوجات . وسنن الزواج في هذا الدين اقرب للعمل واشد موافقة لحاجات الجمعية البشرية واجلب لترقيها من الجهة الاخلاقية الروحية (يُعرِّض بانتشار الفحش في البلاد الغربية الى حدّ لا يُوصف) ولمبادىء الاسلام الاُخر هذا الحظ من الرفعة وشرف المكانة

وذكر في رسالته الثانية « محمد نبي الاسلام » مختصراتٍ من حياة النبي (ص) ونبذاً من التحويل المدهش الذي اجراه في العالم وفي الختام يجيب الكاتب عن اعتراضات المنتقدين المتعصبين » اه

هذه بعض شهادات الاغيار في الاسلام وهي قليل من كثير ولو عمد عامد الى جمع ما قالوه في مديح الاسلام وانه دين اجتماعي سياسي شرعي اخروي الخ لضاقت به الصفحات فان المقالات والمؤلفات في ذلك اكثر من ان تُحصى، واجلّ من ان تُستقصى، وفيما قدمناه من ذلك كفاية لمن اراد الاستبصار والاعتبار ، واما من لم يزل حاملاً

عَلَم التعصب ومحتجباً تحت برقع الرياء او الاوهام فلا يفيده دليل ولا تقنعه حجة ولو كانت كالشمس في رابعة النهار

هل الاسلام يناقض المدنية العصرية ؟

قدمنا ان الاسلام يأمر بما فيهِ سعادة المرء في الدارين ، والسعادة امر لا يجوز تحديده بل لا يمكن تعريفه ، لانه يختلف باختلاف الاذواق والمشارب : فمن رجل يعدُّ السعادة في المال ، ومن رجل يعدّها في الوحدة والانزواء عن الخلق ، ومن آخر يعدها في اقتناء الجياد المطهّمة وركوب العربات المفخّمة ، ومن آخر ومن آخر .... ومن آخر يعد السعادة هي سعادة المرء في نفسه وانها نهاية السعادة ، ومن آخر يقول ان السعادة في العلم واكتساب المعارف . ورأيُ اكثر شبان هذا العصر ان السعادة هي في الخمر والقمر واتيان الفواحش واتخاذ الاخدان الخ ..... اصلحهم الله ولا حول ولا قوة الا بالله .

هذا وان نظرنا الى المدنية العصرية نجد أنها نادٍ حافل بانواع العلوم والصناعات والاختراعات الخ

اشرقت في سماه تتهادى   بجلاها غرائب الاشياء[1]

---

(١) الابيات من قصيدة للمولف عنوانها : « عصر العلم » ومطلعها : —

وتميس العلوم تيهاً وكانت قد تسجَّت من قبله بالخفاء
عصر علم يُجلى الينا عروساً مثّلوها معارفاً للرائي

فالشريعة الاسلامية من هذه الجهة موافقة للمدنية العصرية موافقة تامة ، لانها تأمر بعمران الكون وما فيه سعادة الحياة الاولى ، قال رسول الله (ص) : اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » — غير ان الاسلام يناقض هذه المدنية من وجوه ، كما أنَّ سائر الاديان السماوية تناقضها لهذه الاسباب نفسها :

منها حب الاستئثار بالمنافع وهو ما يسمونه بالاحتكار ، فالاديان تمنع ذلك البتة لانه ضارٌّ بمصالح العباد ، والخلق كلهم عيال الله كما قال الرسول (ص) — ومنها البخل والانتحار[1] ، ومنها الحرية في اتيان الفواحش كالزنا وشرب الخمر والقمار والربا وغيرها من الجرائم الضارة التي تفتك اليوم بجسم العالم الاوربي ، وقد سرت هذه الادواء الينا لاحتكاكنا بهم حتى انه ليخشى علينا أن نفقد شعورنا بالواجب الديني الذي فيه صلاح حالنا في هذه الدنيا وفي الاخرة ،

— خلِّ ذكر الربع البليّ القواء وطعان الفرسان في الهيجاء
وجمالاً اخنى عليها زمان العلم عصر البخار والكهرباء

(١) لنا في موضوع الانتحار مقال اثبتنا فيه انه من الشرور ، ودفعنا قول من توهم انه من المكارم وقد نشرناه في جريدة الاقبال التي تصدر عن بيروت في العدد ٢٣٨ من السنة السادسة

فان هذه الامراض ماسرت في امة الا واعدمتها النجدة والغيرة وصحة الجسم والعقل ورمتها في هوّة الاخلاق السافلة وغمستها في حمأة الشرور

فالشرقيون المقلدون للغربيين لم يُحسنوا التقليد فان اكثرنا قلَّدهم في البذخ والخمر والقمار والتهتك (والبالو) وسائر فروع الحرية الجالبة على الاخلاق والاموال والاجسام والاعراض امراضاً قتالة وجراثيم سامة. ولكنهم ويا للاسف لم يقلدوهم في العلوم والمعارف الصحيحة التي ترقى بهم في سلم المدنية الحقة، وترفعهم من دركات الجهالة — ولم يحسنوا من المدنية العصرية الا (البوط والكازمتيك والقميص المكوي والكرافات والتواليت والبنطلون الضيق وشرب البيرا والشنبانيا والقمار وسهر الليل في المواخير والملاهي ومغازلة الغانيات واتخاذ الصواحبات و و و . . . الى آخر مالو اردت استقصاءه لسوَّدت وجوه الصفحات) — ولكنهم عن المدنية النافعة التي هي عبارة عن اكتساب العلوم والمعارف والصناعات والاختراعات وكل ما يفيد المرء في دنياه غافلون، وفي اللهو مشتغلون، وبسوى ذلك لا يحفلون:

فالى متى ذهبَ الزمانِ نُضيّعُ ذهبَ الزمانُ وما مضى لا يرجعُ
والنَّشءُ ذاك عن الهوى لا يُقلع وسواه اوقات الفراغ يُضيّعُ
وهمُ عن الخلق الصحيح بمعزل

فالجلُّ في تلك المواخر هُجَّعُ واذا أُحسُّوا بالنصيحة أو دُعوا
للمهمَّةِ او حادثٍ لا يسمعوا واذا دعا داعي السفاهة يُهرعوا
لخطيبها كالعارض المتهلّلِ

حسبوا التمدن والعلى أن يكرعوا في خمرةٍ منها الردى يتضوّع
لا يتركون كؤوسها او يُصرعوا واذا صحوْا منها فليتك تسمعُ
احداً ينادي ليتني لُم أَفعلِ

نادي القمار بهم خصيبٌ ممرِعُ فهمُ اليهِ كلَّ يومٍ نُزَّعُ
واذا دعا نادي العلا يتفزعو نَ كأَنما فيه اقام «البعبعُ»
أَو انَّهُ يدعوهم للمقتلِ (١)



(١) الابيات من قصيدة مزدوجة للمؤلف وهي من «الشرقيات» ومطلعها :
يانشءُ هذا العصران لم تحفلِ بمقالتي ونصيحتي لم تعقلِ
فابشر بداءٍ لا يُبارح مُعضلِ يُرديك في وادي الهوان الاليل
فتبيت رهنَ غضاضة وتذلل

مناقشة كرومر وكيله الصاع بالصاع

مقدمة المناقشة

قبل الدخول مع جناب اللورد في غمار البحث لا بدّ لي ان أُكاشفه بامرين مهمين رأيت روحه وعقله يتمايلان طرباً واعجاباً بهما فوق مراسح كتابه :

احدهما : قوله في كلامه عن المرحوم السيد محمد بيرم التونسي : «علّمه ذكاؤُه الفطري ان النظامات التي تعلّق بها اسلافه لا بدّ أَن تتلاشى متى قابلتها المبادي السامية المرقومة على راية الانكليزي »

ونحن نقول لجناب اللورد : ايّ نظامات تعني كانت اسلافه متعلقة بها ؟ — لا اراك تعني الاّ احكام القرآن الشريف . وايّ مبادىء سامية مرقومة على راية الانكليزي تريد ؟ — لا اراك تريد الا الشريعة الانكليزية التى تعمل بموجبها الدولة البريطانية في المعاملات — فان كان كذلك ، فاعلم وانك لَتعلم ان تلك المبادىء التي تتيه بها عجباً واعجاباً هي او جلُّها مبادىء الاسلام الاساسية التي رقي بها المسلمون ايام شباب الدين في معارج الحياة حتى دانت له رقاب الامم ، واعجبت به اساطين السياسة من كل ملة ودولة ، حتى

انه انتشر في مدة ربع قرن انتشاراً هائلاً خارقاً للعادة بسرعة لم يُعهد لها نظير في التاريخ · وهذه النظامات لم تزل بيننا مسطورة نقرأها ولكن اكثرنا غافل عن العمل بمقتضاها لاهٍ عنها ، بل ان كثيرا منها مسطور فيما نسميه كتب الفقه فى قسم المعاملات ، بل انَّ فى القرآن وهذه الكتب ما هو ارقى من احكام القوانين الاوروبية على اختلاف منازعها ، ولكن الجهل باصول الشريعة الاسلامية ومبادئها القويمة دعاك ايها المورد الى التقوّل علينا بشيء كان الاولى بك الاَّ تخوض فيهِ الا بعد ان تقتله علماً · ألم تعلم ان كثيراً من تلك النظامات التي تفتخر بها والمباديء التي تتمايل عند ذكرها مترجمة عن القوانين الاسلامية وجلّ احكام هذه القوانين مأخوذ او مستنبط من القرآن الكريم وكلام محمد عليه الصلاة والسلام ·

— فاي مبادىء على راية الانكليزى يُخشى منها على النظامات الاسلامية —؟ ان كانت تلك النظامات مما وضعه اولئك البسطاء الجانون على الاسلام وان كانوا من اهله فلا كلام في ذلك ، لان عقلاء المسلمين في كل صقع تأبى مافيها وتنفر منه ، وان كانت ماهو مستند الى قواعد الدين الاساسيــة فالمباديء المسطورة على راية الانكليزي تمشي معها في منهج واحد ، وتجري واياها فى مجرى واحد ، لانها في الحقيقة مسلوخة عنها ، اللهم الا ما كان مخالفاً لبعض العوائد

الدينية او الاخلاقية او الشرقية مما يعدّه قوم حسناً وآخرون سيئاً فهو من الامور النسبية التي ترجع الى ما اُعتاده اهل كل صقع، وهو لا ضرر فيه ان بقي الشرقي او المسلم متمسكاً به لانه من الامور العرضية ، والاعراض لا تؤثر في حقيقة الجواهر . فلنترك الكل ان يعتقد ما يشاء ويفعل من العوائد ما يريد ، الا ان كانت تلك العوائد محققة الضرر بعد الاختبار الكثير والنظر الصحيح .

الترقي المسيحي : — وهو الامر الثاني من الامرين اللذين اردت ان أكاشف بهما جناب اللورد — فقد غلب عليهِ سكره بالادب المسيحي والترقي المسيحي حتى حكم على المسيحيين الذين هم في بلاد المسلمين بعدم الترقي لتأثير العنصر الاسلامي وآدابه واخلاقه عليهم فمنعهم من الرقي في سلم الحضارة والاخذ باهداب التمدن .

ونحن نقول للورد كرومر : ماهو الترقي المسيحي الذي تعنيه ؟ — ان كان ما هو مسطور في كتب الدين المسيحي فقد ظلمت في الحكم ، لان معتمد كتب الديانة عندكم هو الانجيل ، ونحن نرى ان جلّ مافي الانجيل تاريخ السيد المسيح صلوات الله عليه في هذا العالم وبعد انتقاله الى العالم الآخر . وما فيهِ من سوى ذلك فكلهُ حاثٌ على ترك العالم الفاني وعدم الالتفات اليهِ بوجه من الوجوه الا ما يسدّ الرمق ، وهو يؤنب الاغنياء والامراء اشد التأنيب ،

ويوبخ من يسعى للدنيا اقرع التوبيخ ، وخير ما فيه كما يقول المسيحيون خطبة الجبل ، بل بالغ بعضهم فقال : إنها هي الديانة المسيحية — وكلها امر بالتمسك بالعالم الباقي وترك الدنيا ومن يسعى لها .

هذا وان الانقطاع عن الدنيا اصل من اصول الديانة المسيحية حتى صرح في الانجيل بما نصه :

« لا تقدرون ان تخدموا الله والمال ، لذلك اقول لكم : لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لاجسادكم بما تلبسون . أليست الحياة افضل من الطعام والجسد افضل من اللباس ؟ — ولكن اطلبوا اولا ملكوت الله وبره ، وهذه كلها تزاد لكم . فلا تهتموا للغد لان الغد يهتم بما لنفسه ، يكفي اليوم شره — الحق اقول لكم : انهُ يعسر أن يدخل غني ملكوت السموات . واقول لكم ايضاً : ان مرور جمل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غني الى ملكوت الله — لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ، ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا عصا الخ

قال الاستاذ الامام في كتاب الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية بعد كلام ما نصه :

« كان ذلك في طبيعة الدين : ان من لم يتبع المسيح فهو هالك ، والهالك لا يستحق الحياة ، الم ترَ في الاصحاح الخامس من الاعمال

الى قصة الرجل الذي باع جميع ما عنده وعند ما جاء الى بطرس اعطاه الثمن وأدَّخر لنفسهِ شيئاً اخفاه ، فاطلع بطرس على حقيقة الامر ووبَّخ الرجل وتصرف فيه بسلب حياته من طريق المعجزة ، ثم جاءت امرأته وكان لها اطلاع على ما اخفي زوجها ولم تنههُ فوبخها بطرس واخبرها بموت زوجها فماتت هي ايضاً — فان كان الله يسلب الحياة جزاء اختلاس الرجل شيئاً من مال نفسه لم يقدّمه هديةً للرسل ، فكيف تكون الحياة من حقه اذا خالف خلفاء الله في الارض ونابذهم فيما يعتقدون ؟ » اه

هذا وان من احكام الدين المسيحي ايضاً الموادعة والمسالمة المطلقتان لكل مَن اراد المسيحي بسوء ، فهو يأمره بان يُدير الخدَّ الايسر لمن يلطمه على الايمن ، وان لا يُجازي المسيء الا بالخير ، الى غير ذلك من الاحكام التي لو تمسك بها المسيحيون اليوم وتعلَّقت باهدابها الدول النصرانية لكانت أذلّ امم الارض ، ولما قام لهم قائمة وعزَّت لهم شوكة ، بل كانوا طعمةً لغيرهم ، لان مقتضاها أن مَن ارادهم بشرّ يجب عليهم ان يسالموه ولا يقابلوه بمثل اعتدائه وشره ؛ فهو لو غصب منهم مقاطعة وجب عليهم ان يعطوه مقاطعة أُخرى جزاء عدوانه وبغيه . . . . وهكذا الى أن يبقوا تحت نير غيرهم وحكم كل متسلط مُعتدٍ عليهم — فما هو اذن ذلك الترقي المسيحي الذي يفتخر

بهِ كرومر وإنَّ دينه يأمره بعدم الترقي في الدنيا وعدم الاستعداد الا لما بعد الموت ؟ — ان كنتم متمسكين بالآداب المسيحية التي تدَّعون انها سبب رُقيكم ونجاحكم فلمَ تسعون للدنيا سعيكم المعروف ، وتشنون الحروب وتبيعون الدماء بيع الماء للحصول على لذة التحكّم والغلبة ؟ — اراكم لم تعملوا بالآداب المسيحية بل بضدها فلستم اذن مسيحيين ، وهذا الترقي ليس مسيحياً — الترقي المسيحي الذي يأمر به الانجيل هو اخروي بحت يُراد به ترقي النفس وتهذيبها فقط واحتقار الدنيا وما فيها كما قدمنا — فالدين المسيحي اذن دين اخرويّ لا غير ، وليس ديناً مدنياً لانه يحتقر المدنية واهلها ٠

الترقي الاسلامي:— على ان الدين الاسلامي الذي هو عبارة عن القرآن الكريم دينٌ اخرويٌّ مدني ، يوجب على المرء ان يأخذ نصيبه من تهذيب النفس والعقل والتحلي بمكارم الاخلاق ومحاسن الاداب ؟ كما يوجب عليهِ ان يأخذ باسباب دنياه التي ترفّه عيشه وتجعله من المتمدنين ، كما جاء في القرآن الكريم : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة » وجاء فيهِ ايضا « قل مَن حرَّم زينة الله التي اخرجَ لعباده والطيباتِ من الرزق » وفي القرآن من هذا كثير تضيق صفحات هذا الكتاب دون ايراده ٠ وقال رسول الله عليهِ الصلاة والسلام: « اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا ، واعمل لآخرتك

كانك تموت غداً » — فانك ترى ان الشريعة الاسلامية تأمر بالاقتصاد في امري المعاش والمعاد ، بحيث لا يميل المرء الى الدنيا ميلاً كلياً ويهمل امر آخرته ، ولا يميل الى الآخرة كل الميل ويهمل امر هذه الحياة الدنيا ، بل أمرته بان يحصل نصيبه الدنيوي والاخروي . ومن تصفح القرآن الشريف والاحاديث الصحيحة يعلم صحة ما نقول .

وقد وصف الرسول الدنيا لمن حافظ عليها واهمل امر الآخرة احسن وصف فقال : « الدنيا عَرَض حاضر يأكل منها البرّ والفاجر ، والآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك عادل يُحق الحقّ ويُبطل الباطل ، فكونوا ابناء الاخرة ولا تكونوا ابناء الدنيا ، فانّ كل ام يتبعها ولدها » فهو يأمر الانسان بأن يكون ابناً للآخرة بحيث لا يتفرّغ للدنيا وحدها ، ونهاه أن يكون ابناً للدنيا بأن لا ينظر الى امر آخرته قطعاً ، وقد فصّل هذا المعنى كلامه السابق : « اعمل لدنياك الخ » وقد قلنا في شرح الحديث عند قوله « فكونوا ابناء الآخرة ولا تكونوا ابناء الدنيا » في كتابنا (لباب الخيار في سيرة المختار) ص ٦٨ — ٦٩ ما نصه : « ليس المراد انه ينهاهم عن الدنيا البتة وأن يتركوها قطعاً ، وانما نهاهم ان يجعلوها مقصودة بالذات ، بل وسيلة للآخرة وقنطرة يجوزون فيها اليها ، والقرآن والاحاديث

طائفة بما يحث الانسان على الكسب والعمل قال تعالى « ربَّنا آتِنا في الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة » وقال صلى الله عليهِ وسلم: «اعمل لدنيــاك كانك تعيش ابداً ، واعمل لآخرتك كانك تموت غدا » — والزهد في الدنيا المطلوب شرعاً هو ان لا يغترَّ المرء بزخارفها ويصبو الى مشتهياتها ان كان شيء من ذلك يضر بأمر الدين ، وأَن يكون ما عنده من الاموال في يده لا في قلبه بحيث يصرفه في وجوهه المشروعة متى دُعي الى ذلك ، لا أَن يهمل الاشغال والاعمال ويكون كَلاًّ على العباد ، وقد ورد في الحديث الشريف : « ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه حتى يصيب منهما جميعاً ، ولا تكونوا كلاًّ على الناس » — على ان مَن راجع تاريخ الصحابة يعلم أَنَّ منهم مَن كان عنده من الاموال القناطير المقنطرة والانعام والخيل الخ ، لكنهم متى وجدوا حاجة الى انفاق شيء منهُ وجدتَ احدهم اسرع الى ذلك من السهم الى هَدَفه » اه قولنا هناك

النبي صلى الله عليهِ وسلم لم يقل : « بع مالك واُتبعني » ولكن قال لمن استشاره فيما يتصدق به من ماله : « الثلث والثلث كثير ، انك ان تذر ورثتك اغنياء خير من أَن تدعهم عالة يتكفَّفون الناس »

ولو قابل جناب اللورد كرومر بين تعاليم القرآن والانجيل يجد بوناً شاسعاً بين التعاليمين من بعض الوجوه · فان الثاني يأمر

المرء أَن يُبغض اباه وامه واولاده واصحابه ليتبع المسيح عليهِ السلام حتى انه قال : « لا تظنوا اني جئت لالقي سلاماً على الارض ، ما جئت لأُلقي سلاماً بل سيفاً ، فاني جئت لافرّق الانسان ضدّ ابيه والابنة ضدّ امها والكنة ضد حماتها، واعداء الانسان اهل بيته » — والأول يأْمر الانسان ان يتبع محمداً صلى الله عليهِ وسلم مع بقاء الاحسان لابويه واصدقائه وكل من كان بينه وبينه علاقة قبل الاسلام ، بل يأْمره باعتبار الناس بالرافة والرحمة كانهم اولاده وابواه حتى قال محمد صلى الله عليهِ وسلم :

« الخلق كلهم عيال الله فاحبهم اليه انفعهم لعياله »

وجاء في القران قوله تعالى : « وبالوالدين احسانا » وقوله « ووصَّينا الانسان بوالديه إحسانا ، حملته امه كرهاً ووضعته كرهاً (اي بمشقة) وحملُهُ وفصاله ثلاثون شهرا ، حتى اذا بلغ أَشدَّهُ وبلغ اربعين سنةً قال ربِّ اوزعني (أَلهمني) أَن اشكر نعمتك التي انعمتَ عليَّ وعلى والديَّ وأَن اعمَل صالحًا ترضاه وأَصلحْ لي ذريَّتي ، إني تبتُ اليك وإني من المسلمين » وقوله عزَّ وجل : واعبدوا الله ولا تُشركوا به شيئًا وبالوالدين احسانا » وقوله تعالى : قل تعالَوْا أَتلُ ما حرَّم ربكم عليكم : أَلاَّ تشركوا به شيئًا ، وبالوالدين احسانًا ، ولا تقتلوا اولادكم من إملاق (فقر) نحن نرزقكم واياهم ، ولا

تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله الا بالحق ،ذلكم وصاّكم به لعلكم تعقلون » وقوله تعالى :« وقضى ربك الاّ تعبدوا الاّ اياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغنّ عندك الكبرَ احدُهما او كلاهما فلا تقل لهما أُفٍّ ولا تَنهرْهما وقل لهما قولاً كريماً. واْخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة ، وقل ربّ ِارحمهما كما ربّياني صغيرا »

هذا وقد أَمر القرآن باستعمال العدل مع كل الناس حتى مع الاعداء والمبغضين للاسلام والمسلمين فقال : « يا ايها الناس كونوا قوّامين لله شهداءَ بالقسط (العدل) ولا يَجرمنّكم (لا يحملنكم) شنآنُ قومٍ (بغضهم) على الاّ تعدلوا اُعدلوا هو اقربُ للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون »

ولو قال قائل : ان الانجيل يأْمر بالمسالمة والرحمة ايضاً فما بالك تصفه بانهُ يأْمر با يقاع ذات البين والتفرقة بين المرء وزوجه والوالد وابويه والصديق واصحابه ؟ الم يقل « احبوا اعداءكم باركوا لاعنيكم الخ ؟ » نقول ذلك حق ، ولكنه يهدم في موضع ما يبنيه في موضع آخر ،فلا يكاد يثبت في نفس القاريء ما بناه حتى يُزعزعه بكلام آخر فيتركه حيران لا يستقرّ على رأْي ولا يأْخذ بخُلُق : أَلم يأْمر اصحابه بالاتيان باعدائه وذبحهم تحت اقدامه ، وان يبغض الرجل اباه

وامه . الخ ؟

نعم اني لا أُنكر أَنَّ اعمال اكثر المسلمين اليوم لا تنطبق على ما امر به كتابهم ، بل اقول : ان اكثر افعالهم تناقض مبادئه واوامره ونواهيه حتى حجبوا حقيقته وجوهره بتلك الاعمال الشائنة — فالمسلمون والنصارى وخصوصاً اهل اوروبا ودولها العظيمة كلهم حادَ عن دينه وأتبع غير سبيله ، حتى ان دولة عظيمة وهي فرانسا رفضت الدين البتة وطردت اكثر روؤساءه وهي تسعى لاجلائهم جميعاً عن بلادهـا — اقول ان المسيحيين جميعاً حادوا عن دينهم ، وذلك لان الانجيل يأمرهم بترك الدنيا بتاتاً وترك الحروب وادارة الخد الايسر لمن ضربهم على الايمن الى غير ذلك ، وهم تركوا كل ذلك وتمسكوا بضد مبادئه وتعاليمه وآدابه — واقول ان المسلمين حادوا ايضاً عن الدين لان القرآن يأمرهم بالاقتصاد في الدين والدنيا وان يكونوا آخذين بالترقّيين الدنيوي والاخروي فتركوا الدنيا ، ثم تبع ذلك تركهم للدين فاصبحوا مذبذبين واضاعوا الدين والدنيا معاً ، فخسروا بذلك خسراناً مبينا ، حتى صدق عليهم قول نبيهم : « أَخسر الناس صفقةً من أَخلق يديه في آماله ، ولم تُساعده الايام على أُمنيَّته ، فخرج من الدنيا بغير زاد ، وقدم على الله بغير حجة »

غير ان الفرق بين المسلمين والنصارى من حيث ترك الجميع

للدين كبير — فالنصارى تركوه لما هو ارقى واسمى من حيث الترقي المدني والمعاشي واختلقوا لذلك عذرا يعتذرون به وهو فصل الدين عن المدنية او السياسة — والمسلمون تركوه لما هو اذلّ واحطّ في الدنيا والآخرة — فاما ترك اولئك الدين وتعاليمه القاضية بأن يكونوا روحيين فقط لا يتعلقون باهداب الدنيا نجحوا وارتقوا في سلم الحضارة الدنيوية الى غاية يقصر عنها الوصف ، غير أنهم تدلّوا من جهة الاخلاق والدين الى هوّة لا يحيط بها العقل ، لأنهم بتمسكهم بالدنيا تمسكاً كلياً اهملوا جانب الدين وما يأمر بهِ من المكارم والاخلاق والمرحمة الخ — ولما ترك هؤلاء (المسلمون) دينهم الذي يأمرهم بالمدنية والعلم وكل ماينفعهم في الحياتين صاروا ينحطون عن ذروة المجد شيئاً فشيئاً الى ان بلغ بهم الامر ما هم فيه الان ، غير أنهم قد افاقوا الآن من ذلك السبات العميق ، واخذوا يغسلون عن عيونهم ذلك العمش الذي كان يمنعهم من رؤية الحقيقة بفضل ﴿ خليفتهم الاعظم ﴾ وبسبب مايبذله بعض العلماء العاملين الذين رجعوا بالدين الى بساطته الاولى ودرسوه على نحو ما كان يدرسه ويفهمه سلفهم الصالح الذين بلغوا بفضل الدين المحمدي ذروة لا تنال ، ومدنية شهد بها المخالف قبل الصديق .

فما نراه الآن من مدنية اوروبا ليس مما تامر به الديانة المسيحية

بل انها تنافيه كما سلف ، ولا يُستدل بعمل الاوروبيين ومدنيتهم على ان ذلك من آثار دينهم كما صنع اللورد كرومر :

اذ لا ريب ان مَن اراد ان يستدل على حقيقة دين يعمد الى قواعده الاساسية واوامره ونواهيه ليمكنه الحكم عليهِ — فكم من امة خالفت ماجاء بهِ كتابها وعملت بخلافه: خذ مثلاً الامة الاسلامية فانها اهملت كثيراً مما يحث عليه القرآن واتبعت كثيراً مما ينهى عنه : امرها باكتساب العلوم والمعارف والسعي وراء ما يفيدها في الحياتين فسارت حيناً في تلك السبيل ، ثم خلف خلف اضاعوا ما جمعوا وهدّموا ماشيدوا لاسباب ليس هنا محل ذكرها وقد قدّمنا بعضها : نهاها عن الموبقات كالزنا وشرب الخمر والقمار والربا فكان نصيب كثيرٍ من المسلمين ان تدنسوا بادناسها وانغمسوا بحمأتها فان عمد عامد ليحكم على الدين الاسلامي فلا يجوز له ان ينظر الى افعال المسلمين ثم يحكم على دينهم بافعالهم لان الاسلام محجوب بالمسلمين .

ونحن الآن نتكلم عن المدنية التي انتجتها الديانة المسيحية نفسها فلا ينبغي لنا ان ننظر الى تمدن دول النصرانية اليوم ثم نقول ان هذا من آثار دينهم ، لاننا قدمنا أنه لا يُستدل بافعال امة على دينها:

— خلاصة ما تأمر بهِ الديانة المسيحية : ترك الدنيا وكره

الاغنياء وبغض التمدن وكراهية الرجل اهله وذويه ليصلح ان يكون تلميذاً للمسيح عليهِ السلام وان لا يُجازى بمثل ما جوزي به، وان اضرَّ ذلك بالهيئة الاجتماعية. ومقتضى هذه القاعدة الاخيرة تلاشي العالم وفساد النظام الكوني، لانها تُجرّيء المجرمين على زيادة العدوان والاذية، وتشدُّ بساعدهم لإهلاك العالم، الى آخر ما تُنتجه من الامور المضرة بالعمران — فانت ترى ان ما يأمر بهِ هذا الدين مُنافٍ للمدنية الحاضرة مُنافاة تامة، وليس يصلح الا لذلك الزمان الذي وجد فيهِ السيد المسيح، حيث فسدت الاخلاق ومال الناس للشهوات وحب الدنيا والانتقام الظالم ميلاً عظيماً واهملوا شأن الآخرة الخ.

اذن فليس هذا التمدن المشاهد مسيحياً بمعنى انه مما ولّدته الديانة المسيحية، لانها تُنافيه كما قدمنا — فليترك جناب اللورد كرومر سكره بالادب المسيحي والترقي المسيحي والمدنية المسيحية الخ.



التناقض في كلام كرومر

والرد على بعض مزاعمه

وفيه كلام عن المدنيتين ايضاً

كلام كرومر مضطرب كريشة في مهب الريح طائرة ، فبينا تراه ينهي عن الخوض في العبث بالاديان تراه يخوض مع الخائضين ويعبث مع العابثين وبينا تراه ينتقد الاسلام من حيث هو شريعة وسياسة لا من حيث هو ادب ودين ويقول : « اما من جهة نظر المتأدب فلا سبيل الى انتقاد مبادي الاسلام الاساسية ، ولكن الانتقاد يُوجه فقط الى السيئات التي نشأت فاصبحت الآن تستر سذاجته الاولى » — تراه من جهة ثانية يرجع عن هذا الكلام ويُقبّح الدين واهله اشدّ تقبيح حتى قواعده الاساسية التي قال انه لا سبيل الى انتقادها .

اللورد يحذر من التعرض الى الاديان وينهي عنه اشد النهي وقد صرّح بذلك حيث قال :

« أحذّر الذين يتولّون قيادة الحكومة من تعرضهم بحماقة الى زعزعة البناء الادبي الذي تقوم عليه الهيئة الاجتماعية الشرقية اذ العبث بدين امة كاملة هو امر محفوف بالخطر العظيم سياسياً

واجتماعياً وادبياً »

هذا هو كلام اللورد في هذا الموضوع وهو كما تراه معاقدمنا من كلامه من الاضطراب بمكان . واني اراه ذلك الاحمق الذي وصفه في كتابه بل لا ينطبق على غيره ، لانه نقض هذه القاعدة التي امر الهيئة الحاكمة بالعمل بمقتضاها ، وعبث بالاسلام والمسلمين واحرج صدورهم حتى ملأها غيظاً وحنقاً بسبب ما كتبه بحماقة ظاهرة في كتابه « مصر الحديثة » من الطعن بهم وبدينهم ، واظهر الاستخفاف بمبادئه وقواعده ، وان تكن هي التي كانت سبب رقي قومه وسائر العالم المتمدن . . . . . .

وبينا تراه يقول ان الانتقاد يوجه فقط الى السيئات الحديثة التي ألصقت بالدين ، تراه وهو يتكلم عن المبادىء الدينية يشرد الى الكلام عن العادات القومية والبدع التي ليست من الدين في شيء ، ثم يحكم بعد ذلك (اي بعد ان يخلط العوائد السيئة بقواعد الدين الاساسية) بان الاسلام عقبة كؤود في سبيل ترقي المسلمين ، ويقول معتذراً عن تأخر المسلمين في المدنية :

« لاننا كيف تأملنا في المصري وجب ان نذكر دائماً نتيجة ما اوصلته اليه حوادث تاريخه ومناخه ودينه ومركزه الجغرافي »

اثنى جناب اللورد على الاسلام من جهة كونه ديناً وآداباً ،

ولكنه شاب هذا الثناء بسموم لا تخفى على ذي بصيرة فقد اردف ذلك الثناء بقوله :

« ان العمل بهذه القواعد قد افاد مئات الملايين ممن اعتنقوا الاسلام ديناً لهم وخصوصاً الفقراء بينهم عزًّا روحياً فضلا عن النعم المادية من خيرات هذا العالم وامل الخلود في الآخرة» — كأنه اراد ان الاسلام لم يُفد الا الطبقة المنحطة وأما انه افاد الطبقة العالية فلا ، وهو كلام بعيد عن الحق بعد الشمس عن الارض ، لان المطلع على تاريخ الاسلام يعلم ما افاده من الرقي للناس اجمعين شريفهم ووضيعهم عالمهم وجاهلهم .

أَنسي جناب اللورد المدنية الاسلامية وعظمتها وما افادته للعالم اجمع من العلوم والمعارف والصناعات ؟ أَنسي مدارس بغداد والبصرة والقاهرة والشام والاندلس (اسبانيا) ومراكش وبخارى وسمرقند ؟ أَنسي ما كان يُدرس فيها من العلوم والفنون ؟ أنسي ما اخترعه العرب من الاعمال المدهشة التي افادت فائدة لا تُنكر ؟ — كان في مدرسة بغداد في القرن السادس الهجري ستة الاف شخص بين معلم ومتعلم ، وكان بقرطبة وحدهـا من بلاد الاندلس ثمانون مدرسة في ايام الحكم المستنصر بن عبد الرحمن في منتصف القرن الرابع للهجرة ، وكان في القاهرة وحدها عشرون مدرسة منها الجامع

الازهر الذي هو الآن المدرسة الاسلامية العظمى وكانوا يدرسون فيه علوم الشريعة ومقدماتها والمنطق والوضع والمناظرة وجميع الرياضيات والالهيات وعلم الطب والهيئة والتاريخ ، وقد تخرَّج من هذه المدرسة في الزمان السابق علماء كثيرون في جميع ما قدمناه من العلوم التي كانت تدرس فيه[1]

وكانت مدارس الاندلس على غاية الاتقان ، وقد قصدها اهالي اوروبا في القرون الوسطى ودرسوا فيها العلوم على اختلاف موضوعاتها ثم رجعوا الى بلادهم ، وفي سنة ٢٦٠ للهجرة (٨٧٣ م) أمر (هرتموت) رئيس دير (ماري غالن) جماعةً من رهبانه بدرس اللغة العربية لتحصيل معارفها وما دُوّن فيها من العلوم والفنون ، وكان في جملة من درس في هذه المدارس (البابا سليبستروس الثاني) واصله رجل فرنساوي يقال له (جربرت) وقد طاف قسماً كبيراً من اوروبا طالباً للعلوم والمعارف حتى وقع على الاندلس فدخل مدارس اشبيلية وقرطبة و بذل همته في تحصيل العلوم حتى أَساغها ، ثم عاد

---

(١) اما الآن فلا يدرس فيه الا العلوم الشرعية والآلية ، وقد ادخل اليه حديثاً بهمة بعض المصلحين الرياضيات والجغرافيا والتاريخ ، وفيه نحو من عشرة الآف طالب علم ، اما طرق التعليم فيه فهي عقيمة والامل ان تصلح بهمة اولياء الامور

الى دياره وما زال يسمو على اقرانه حتى نصَّبوه « بابا » فشاد للعلم مدرستين احداهما في ايطاليا والاخرى في ريمز ، وادخل الى اوروبا علوم المسلمين والارقام الهندية التي نقلها عنهم ·

ثم ثارت الحمية وحبُّ الرغبة في العلم في نفوس اهل ايطاليا وفرانسا وجرمانيا وانكلترا فطلبوا العلوم الرياضية ، ولم يقم عالم من الافرنج بالرياضيات الا كان جميع ماتعلَّمه من العرب مدة قرون جمَّة ، فمن جملة من نقل عنهم العلوم الى ايطاليا « دوكريمونا » فانه قرأ على المسلمين الهيئة والطب والفلسفة بطليطلة ، وترجم عنهم المجسطي وكتب الرازي والشيخ الرئيس ابن سينا الى اللغة اللاتينية · وكذلك « ليونارد البيزي » نقل عنهم الحساب والجبر ، و(ارنولد الفيلانوفي) نقل عنهم الهيئة والطبيعيات والطب · وممن نقل عنهم من الانكليز راهب يسمى « بلارد » وآخر اسمه « مورلي » وآخر يقال له « اسكوت » — هذا وان ما حصَّله « روجر باكون » الشهير من المعارف في الكيميا والفلسفة والرياضيات انما استخلصه من كتب العرب · وكثير غير من ذكرنا تلقَّوا العلوم عن المسلمين في مدارس الاندلس ثم رجعوا الى بلادهم التي كانت مظلمة بحنادس الجهل ، فبثُّوا في قومهم انوار المدنية والعلوم الاسلامية ، ورفعوهم من حضيض التأَخر الى ذروة المجد ·

ولما عرف ملوك الافرنج قيمة معارف المسلمين اخذوا في اقتفاء آثارهم وامروا بترجمة كتبهم الى لغاتهم — ولباب القول أنَّ الافرنج نقلوا عن المسلمين ما نقله المسلمون عن غيرهم او استنبطوه هم انفسهم من العلم والفلسفة والهيئة والطبيعيات والرياضيات والكيميا والطب والصيدله والجغرافيا والزراعة والفراسة ، واخذوا عنهم عمل الورق والبارود والسكر والخزف وتركيب الادوية ونسج كثير من الاقمشة وادخلوا منهم دود القز الى بلادهم وكثيراً من الحبوب والاشجار كالارز وقصب السكر والزعفران والقطن والسبانخ والرمان والتين ، ونقلوا عنهم دبغ الجلود وتجفيفها ، وذلك أنهم حين طردهم اهل اسبانيا الاصليون منها هاجروا الى فاس ففقدت هذه الصناعة من الاندلس ثم استردَّها الانكليز ، ولا يزالون يسمُّون الجلود المدبوغة بها « موركّو وكوردفان » نسبة الى مراكش وقرطبة .

جاء في مجلة الهلال من مقال عنوانه « آثار التمدن الاسلامي » ما نصه :

« فللتمدن الاسلامي فضل كبير في نهضة الشرق وجمع شتاته ، ولم يقتصر تأثيره على الشرق ، ولكنه تناول الغرب فأنهضه بعد غفلته اقتداءً بالمسلمين او خوفاً من تيار فتوحهم بعد ان احتكُّوا بهم في اوروبا اذ وطئت خيولهم شواطيء نهر (لوار) بفرنسا ، وزادت معرفتهم

بهم في اثنـــاء الحروب الصليبية واُطّلعوا على حقيقة المسلمين وما عندهم من اسباب المدنية والعمران والعلم فأخذوا يقلدونهم فيها حتى انشأوا التمدن الحديث على ما نراه »

وجاء في مجلة المقتطف ما نصه :

« ولا تزال الالفاظ العربية في اكثر مباحث الافرنج الطبيعية كالسمت والنظير والسموت والمقنطرات واسماء النجوم والكحول والقلي والجير والقطن والشراب والكيميا وغيرها ، ولولا لغة العرب لبقيت لغة اهل اسبانيا قاصرة كما كانت فاسماء اوزانهم واقيستهم اكثرها عربي محرّف كالقنطار والربع والشبر وكذلك اسماء قطع الماء كالبحيرة والبركة والجب (البئر) والقُبَيبة (مصغّر القبة) وغيرها كثير ، فالمولّدون كانوا في زمانهم حلقةً من سلسلة العلوم التي اُتصلت بها علوم الاولين بالمتأخرين ، **ولولاهم لفقد اكثر المعارف ان لم نقل كلها .**

قال (روبرتسون) المؤرخ الانكليزي الشهير وغيره ما خلاصته :

« في الزمن الذي كان يتدارس فيه العرب هذه العلوم وينشرونها في بلادهم كانت اهالي اوروبا في حالة لا زالوا هم ذواتهم يندبونهــا حتى اليوم ، ولم يستفيقوا من ذلك الجهل المفرط والنوم العميق الاّ بواسطة شروعهم **في تلك الغزوات الصليبية الوحشية** التي اجروهــا مع المسلمين بقصد استخلاص البلاد المقدسة من ايديهم ، حيث

مرّوا في غزواتهم هذه وسيرهم جهة بلاد اورشليم باراضٍ نضرة لحسن زراعتها اكثر من اراضيهم وبدول متمدنة اكثر من دولهم ووجدوا في آسيا آثار تلك العلوم والفنون التي كان أسّسها وأعان على تحصيلها الخلفاء العباسيون »

أنت ترى يا جناب اللورد مما اوردناه هنا وفي باب شهادة الاغيار وفي الباب الذي قبله ان المسلمين بلغوا بفضل تمسكهم بدينهم مدنية خارقة للعادة ، وأسسوا من المدارس والمراصد وحصلوا من العلوم والصناعات ما كان سبباً في تخليص اوروبا من الظلمات التي كانت مرتكمة فوق قلوبهم ومن القيود وسلاسل الجهل التي كانت عقولهم مُقيَّدة بها ، فكيف يقال بعد ذلك ان الاسلام لم يُفِدْ الا الطبقات المنحطة ؟ القائل بهذا احد رجلين اما رجل جاهل بالتاريخ وماجريات الامم ، واما رجل متعصب يقلب الحقائق ويُغير الاوضاع ليموِّه على الناس . — مضى يا جناب اللورد زمن التمويه والكذب فنحن الان في عصر العلم والاختراع عصر البخار والكهرباء عصر الحقائق والحس ، فكلامك لا يُفيد ولا يؤثر الا على ضعاف العقول والذين ليس عندهم من العلم والمعرفة شيء . أظننتَ أنك تُؤثّر بكلامك هذا كما أثّر كلام المثيرين للحروب الصليبية الذين اقتفيت أثرهم وضربت على وترهم ؟ كلا : ذلك زمن مضى كان الوهم

والجهل فيهما السيادة على العقول، وهذا زمن لا يؤثر على عقول اهليه الا الحقيقة والصواب وانت بعيد عنهما ·

استشهد جناب اللورد على دعواه السابقة التي جاءت ضمناً بما كتبهُ « السيرجون سيلي » تحت عنوان « قوة الدين تُنشيء الممالك » وهي :

« اينما وُجدت قوة بربرية قد رفعت نفسها يوماً حتى ارتقت عن حالتها الهمجية ونالت بعض التقدم تجد انها فعلت ذلك بواسطة اعتناقها الدين الاسلامي »

قال المؤيد في ردوده على كرومر ما نصه :

« وهو (اي كرومر) لم يسق هذه العبارة الا ليستدل بها مع مقدمات اخرى منثورة هنا وهناك من الفصول الثلاثة المذكورة آنفاً على أنّ الاسلام انما يُفيد الهيئة الاجتماعية الى حد محدود، وانه لا يفيد الا الطبقات المنحطة من البشر ليخلصها من احوال التوحش والبربرية · أما كونه ديناً يُرقي الآداب ويُعلي النفوس ويعقد اواصر الاخاء والمحبة بين النـــاس فلا ، بل هو دين يبث روح التعصب في اهله ويجعلهم ينفرون ممن لا يدينون معهم به ، وان القرآن نفسه يغرس في عقول مُتّبعيه أَن الانتقام والبغضاء يجب ان يكونا اساس العلاقات بين المسلم وغيره بدلاً من ان يبثّ فيهم روح المحبة والاحسان » اهـ

ولو انصف جناب اللورد لم يحكم على الدين بما حكم من كونه

لا يُفيد الا الطبقات المنحطة وأنه لا يُرقي الآداب وانه يبثُّ النفور بين متبعيه وبين غيرهم الخ الخ — المطلع على القرآن وكلام محمد (ص) يجد فيهما من نوابغ الكلم ومحاسن الحكم والآداب والاخلاق ومُدهشات الاحكام ، الى غير ذلك من المواضيع النافعة والامور المفيدة ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر — القرآن يأمر بحسن الخلق ومعاملة جميع الناس بالحسنى ومكارم الاخلاق — القرآن يأمر بأن لا نعامل مَن صارحونا بالعداوة والاذى الا بالعدل والانصاف وان لا نجعل ما بيننا وبينهم سبباً لعدم العدل قال تعالى : « ولا يجرمنَّكم شنآن قومٍ على الاَّ تعدلوا أعدلوا هو اقربُ للتقوى » وقال : « وانك لعلى خلق عظيم » وقال : « ولو كنتَ فظاً غليظَ القلب لانفضّوا من حولك » وقال : « ان اللهَ يأمرُ بالعدلِ والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عنِ الفحشاء والمنكرِ والبغيِ ، يعظُكم لعلَّكم تذَكّرون » وقال : « ولا تقتلوا النفسَ التي حرَّمَ الله الا بالحقِّ ، ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّهِ سلطاناً فلا يُسرِفْ في القتلِ إنَّهُ كان منصوراً » وقال : « قلْ تعالَوْا أتلُ ما حرَّم ربكم عليكم : الاَّ تُشركوا به شيئاً ، وبالوالدين احساناً ، ولا تقتلوا اولادكم من إملاقٍ نحن نرزُقكم واياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا

تقتلوا النفس التي حرّم الله الا بالحقّ ، ذلكم وصّاكم بهِ لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم الاّ بالتي هي احسنُ حتى يبلغَ اشدَّه ، وأَوفوا الكيل والميزانَ بالقسطِ ، لا تُكلّفُ نفسٌ الا وُسعَها ، واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أَوفوا ، ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكَّرون » وقال: « ومن يقتلْ مؤمناً متعمّداً فجزاؤه جهنمُ خالداً فيها ، وغضب الله عليه ولعنهُ واعدَّ له عذاباً عظيماً »

— وليعلم جناب اللورد أن حكم الذميين ومَن هم في امان المسلمين كحكم المسلمين: يعلم ذلك من درس اصول الشريعة وكتابها المنزل وكلام رسولها محمد مُمدّن العالم ومهذّب الامم صلى الله عليهِ وسلم ، فلا يجوز قتلهم ولا اذيّتهم ولا اكل اموالهم ، بل هم مُساوون للمسلمين في جميع الحقوق المدنية ، ولم يخرج من هذه القاعدة الا من صارح بالاذى والعدوان ، واشهر الحرب على الاسلام فيُباح حينئذ قتاله بعد النصح له ووعظه مقابلةً لعدوانه ، والشرُّ بالشر والبادي اظلم ، بل صرح العلماء انه يجب قتال المسلمين ايضاً ان خرجوا بغياً وعدواناً لقوله تعالى: « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأَصلحوا بينهما ، فان بغتْ احداهما على الأُخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيءَ الى امر اللهِ ، فان فاءتْ فأَصلحوا بينهما بالعدلِ وأَقسطوا ، إنَّ الله يحبُّ المقسطين » وسنوضح هذا المقام في الكلام على التعصب في الاسلام ان شاء الله تعالى

وقد جاء في القرآن من آيات الزجر عن المحرمات قوله تعالى : « ولا تقربوا الزنا إِنهُ كان فاحشة وساءَ سبيلاً » وقال : « يا ايها الذين آمنوا إنما الخمر والميسرُ والأَنصابُ والازلام رجسٌ من عملِ الشيطان فاُجتنبوه لعلكم تفلحون »

وجاء فيهِ من آيات التربية والاخلاق قوله : « وأَن لوٱستقاموا على الطريقة لأَسقيناهم ماءً غدَقًا » وقال : « ولا تصعرْ خدَّك للناسِ ولا تمشِ في الأرض مَرَحًا ، ان الله لا يحبُّ كلَّ مختالٍ فخور » وقال : ولا تقفُ ما ليسَ لك به علمٌ ، انَّ السمعَ والبصرَ والفوآدَ كلٌّ اولئك كان عنه مسؤُولا . ولا تمشِ في الارض مرحًا ، انك لن تخرقَ الارض ولن تبلغ الجبالَ طولاً ، كلٌّ ذلك كان سيئُه عند ربّك مكروها » وقال : « يا ايها الذين آمنوا لا يسخرْ قوم من قومٍ عسى أن يكونوا خيرًا منهمْ ولا نساءٌ من نساءٍ عسى أَن يكنَّ خيرًا منهنَّ ، ولا تلمزوا انفسكم ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومَن لمْ يتبْ فاولئك هم الظالمون » وقال : « ولا تستوي الحسنةُ ولا السيّئةُ ادفعْ بالتي هي احسنُ . فاذا الذي بينك و بينه عداوةٌ كانهُ وليٌّ حميم » وقال : « أُدعُ الى سبيل ربّك بالحكمة والموعظةِ الحسنةِ وجادلهم بالتي هي احسنُ » وقال : « يا أَيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرًا من الظنّ ، ان بعض الظنّ إِثم ، ولا

تَجسَّسوا ولا يغتبْ بعضكم بعضاً ، أيحبُّ احدُكم أن يأكل لحمَ اخيه ميتاً فكرهتموه ، واتقوا اللهَ انَّ اللهَ توَّاب رحيم . يا أيها الناسُ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لِتَعارفوا ، إنَّ اكرَمكم عندَ اللهِ أتقاكم ، إنَّ اللهَ عليمٌ خبير . وقال في صفة المؤمنين ايماناً حقاً :

« وعباد الرحمٰن الذين يمشونَ على الارضِ هوناً واذا خاطبهمُ الجاهلون قالوا سلاما ، والذين يبيتون لربّهم سُجَّداً وقياما ، والذين يقولون ربَّنا اصرفْ عنا عذابَ جهنمَ إنَّ عذابها كانَ غَراما ، إنَّها ساءتْ مستقَرّاً ومُقاما ، والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يَقتُروا وكان بين ذلك قَواما ، والذين لا يدعونَ معَ اللهِ إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرَّم الله الاَّ بالحقّ ولا يزنون، ومَن يفعلْ ذلك يلقَ أثاما ، يُضاعَفْ له العذابُ يومَ القيامة ويَخلُدْ فيه مُهانا ، الاَّ مَن تابَ وآمنَ وعملَ صالحاً فاولئك يُبدّلُ اللهُ سيّآتهم حسناتٍ ، وكان اللهُ غفوراً رحيما . ومَنْ تابَ وعملَ صالحاً فانَّهُ يتوب الى الله متابا ، والذين لا يشهدون الزورَ واذا مرُّوا باللغوِ مرُّوا كراما ، والذين اذا ذُكّروا بآياتِ ربهم لم يخِرّوا عليها صُماً وعُمياناً . والذين يقولونَ ربَّنا هَبْ لنا من ازواجنا وذرياَّتنا قُرَّةَ أعيُنٍ واجعلنا للمتقين إماما . اولئك يُجزَوْنَ

الغُرْفَةَ بما صبروا ويُلَقَّوْنَ فيها تحيَّةً وسلاما ، خالدين فيها ، حَسُنَتْ مستقرًّا ومُقاما »

وانّ من امثال هذه الآيات الحاثّة على مكارم الاخلاق والآمرة بالابتعاد عن قبيح الافعال كثيرًا لا تتسع له المقالات ومن اراد أن يحقّق ذلك فليرجع الى القرآن الكريم ، وأنّى لأَمثال اللورد أَن يعرفوا ذلك وهم بعيدون عن العربية — نعم انهم درسوا ترجمته في لغاتهم ولكن لم يفهموا اسرارها حق الفهم ، اوفهموا غير انهم في تيارات التعصب والحمق غارقون ، على اني لم اذكر من هذه الآيات الا يسيرًا مماً حضرني وما تركته مما احفظه اكثر ، وما في القرآن اوفى واغزر ، فهل بعد هذا يقول متعصب أَحمق كاللورد كرومر : ان الاسلام لا يفيد الا الطبقة المنحطّة وانه يبث روح التعصب في اهله ويجعلهم ينفرون ممن لا يدين معهم به ، وان القرآن يغرس في عقول متّبعيه بغض الأغيار وحب الانتقام

القرآن يا جناب اللورد يأمر بمسالمة من يُسالمنا والاّ نعتدي عليهِ وان لا نقاتل الا من ارادنا بسوء كما جاء في القران الكريم : « وقاتلوا في سبيلِ الله الذين يُقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يُحبُّ المعتدين » — فهل مقابلة الاعداء بمثل ما يقابلوننا بهِ من الشر يُعدُّ من التعصب بكره الاغيار ؟ هل تريد ايها اللورد ان يكون المسلمون عبيداً

مستسلمين لكلّ معتدٍ اثيم ؟ هل تريد ان يعملوا كما قال الانجيل : « من ضربك على خدك الايمن فأَدرْ له الايسر » ؛ هل انتم معاشر المسيحيين عاملون بمقتضى ذلك واخص منكم الانكليز ؟ كلاً ، لانكم لو عملتم بذلك لكنتم اذلّ أُمم الارض — القرآن يريد من مُتَّبعيه ان لا يكونوا اذلاء مضطهدين فلهذا اباح لهم أَن يقاوموا كلّ مَن مدَّ اليهم يداً بشرّ فقال : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليهِ بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله ، واعلموا أن الله مع المتقين » فانت ترى أنه اجاز لهم مقابلة العدوان بمثله ثم امرهم بتقوى الله في ذلك بان لا يخرجوا عن الحد الذي أباحه لهم وهو عدم الزيادة في العدوان ، لأَنهُ رخَّص لهم أَنْ يقابلوا الاعداء بمثل عدوانهم فقط ، ولم يجزْ لهم أَن يجاوزوا الحدَّ فيه — ومع ذلك فلم يوجب عليهم الانتقام من اعدائهم بل جعله مباحاً ان شاؤُا فعلوه وان شاؤُا تركوه ، بل انه حرَّضهم على العفو وترك الانتقام ووعدهم الخير عليهِ ، ولم يوجب العفو عليهم لانهُ مخالف لسنة العمران بل ترك الامر لهم ، فهم ينتقمون متى وجدوا الانتقام احزم ، ويعفون متى رأَوا الصفح والعفو احكم ، لان حلم الفتى في غير موضعه جهل

ووضع النَّدى في موضع السيف بالعلى
مُضرٌّ كوضع السيف في موضع النَّدى

قال الله تعالى في الحث على العفو والصفح : « وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم » وقال : وأن تعفوا اقرب للتقوى » وقال: « إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فان الله كان عفواً قديراً » وقال : « وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فانّ الله غفور رحيم » وقال في سياق الكلام عن بني اسرائيل : « ولا تزال تطّلع على خائنةٍ منهم الاّ قليلاً فاعف عنهم واصفح إنّ الله يحبّ المحسنين » وقال : « وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على اللهِ ، إنّ الله لا يحبّ الظالمين » وقال : « ودّ كثير من اهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفّاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحقّ فاعفوا واصفحوا» وقال : « وسارعوا الى مغفرةٍ من ربّكم وجنّةٍ عرضها السموات والارض أُعدّت للمتقين، الذين ينفقون في السرّاء والضرّاء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحبّ المحسنين »

القرآن اباح لنا بما قدمنا : مقابلة الشرّ بمثله ان كان العفو يعين الجاني على عمله ويجعله شغلاً له ، وبالعفو ان صدر ممن هو اهل للصفح عنه بحيث لم يعرف بعمل الشر قبل ذلك . ومع هذا فالامر بالقصاص مفوّض الى الحاكم وهو يحكم بما فيهِ المصلحة

هذا ما يأمر به القرآن ، وان في كلام محمد عليهِ الصلاة والسلام

كثيراً من الاخلاق والآداب والمساواة بين الخلق والصفح عن زلاَّتهم واعتبارهم اخواناً أكفاء من حيث الحقوق المدنية وقد قدَّمنا شيئاً من ذلك. فهل يُنكر على الاسلام مثل ذلك ؟ ام هل يجوز ان نصفه بغير ما وصف بهِ نفسه من المبادي السامية والاخلاق الراقية ؟ لعمري لم يفعل ذلك سوى متعصب جاهل كجناب اللورد كروم ومن على شاكلته من الناس.

والخلاصة ان اللورد كروم كما قدمنا مشوَّش الفكر مضطرب الحكم على الدين الاسلامي من حيث هو دين وآداب: فمرةً يحكم عليهِ بانه لاغبار عليه الا من حيث تلك الزيادات التي أُلصقت به وليس لها اصل في الدين، وتارةً يقول انه لايفيد بل انه ضارٌّ ومخالف للاداب والاخلاق

يقول اللورد: «ان قواعد الاسلام الاساسية مبينة في القرآن الكريم وقد شرحها العلماء من جميع الامم بلغات كثيرة، ولكن عظمتها وسهولتها لم تُبيّنا باكثر بلاغة مما بيَّنه الصحابة الذين ألتجاؤا الى ملك الحبشة المسيحي يطلبون حمايته من اذى قريش اذ كانت تعتدي على النبي (صلى الله عليهِ وسلم) واتباعه، فقالوا له: «ايها الملك: كنَّا قوماً اهل جاهلية نعبد الاصنام ونأكل الميتةَ ونأتي الفواحش ونقطع الارحام ونُسيء الجوار ويأكل القويُّ

مناّ الضعيف، فكناّ على ذلك حتى بعث الله لنا رسولاً كما بعث الرسل الى مَن قبلنا، وذلك الرسول منا نعرف نسبه وصدقه وامانته وعفافه، فدعانا الى الله تعالى لنعبده ونوحدّه ونخلع ما كنا نترك ما كان يعبد آباؤنا من دونه من الاحجار والاوثان، وامرنا ان نعبد الله وحده: امرنا بالصلاة والزكاة والصيام، وامرنا بصدق الحديث واداء الامانة وصلة الارحام وحسن الجوار والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور واكل مال اليتيم وقذف المحصنة، فصدقناه وآمناّ به واتّبعناه على ما جاء به»

عجباً لكرومر كيف يناقض نفسه بنفسه؟ ان كان لا يعرف مثل ما قدمنا من الايات السابقة، فهل لا يفهم هذه القصة التي اوردها؟ حتى حكم بما حكم مما لا يصدر الا عن متعصب او جاهل

على اننا لو اردنا ان نقارن بين تعاليم القرآن والانجيل نجدهما متّفقين في جميع المسائل الجوهرية، لان الاديان جميعها كما قال السيد الامير عبد القادر الجزائري: «اولاد علاّت ابوهم واحد وأُمهاتهم متفرقة» نعم يختلف القرآن والانجيل من حيث الايضاح والوفاء بالغرض، ومن حيث ان الانجيل يدعو الى العمل الاخروي المجرَّد وان القرآن يدعو الى العملين الدنيوي والاخروي ويحثُّ عليهما حثاًّ. وربما اختلفا ايضاً ببعض الامور العرضية التي يمكن للعاقل

ان يوفّق فيها بينهما ·

هل داء المسلم دينه ؟

جناب اللورد حكم بأن الداء العياء والمرض العضال الذي يمنع المسلم من الترقي هو دينه بل ان ذلك قد أ ثر على المسيحيين المجاورين للمسلمين ، قال :

« قلت فيما تقدم ان التقاليد الدينية هي من جملة الموانع بين الانكليزي احد افراد العائلة الاوروبية من جهة التمدن العمومي ، فانه يحاول اكثر من كل اوروبي آخر ان يصل الى اسمى درجات الرقي من التمدن المسيحي ، اي انه يحاول ان يدخل نظام آداب مسيحي صريح ويجعله قاعدة للعلاقات بين الرجل والآخر ، يحمله على ذلك تلك المبادىء القديمة التي جاءته من اسلافه ومن دمه البيوريتاني الذي لا يزال يجري في عروقه · ومن الجهة الاخرى فان المصري متمسك بدين الاسلام الذي ينوب فيه الايمان الى درجة قصوى عن الوطنية في البلاد الشرقية »

اقول : إن ما حكم بهِ جناب اللورد ضمناً من أن الدين الاسلامي من جملة موانع الترقي والتقدم خطأ بحت منشاؤه اما الجهل او التعصب وهو الاقرب ، فقد بينا فيما سبق أن المسلمين بلغوا ايام عزهم

وتمسكهم بدينهم مقاماً من الترقي والتمــدن لا يزال كثير من دول اوروبا قاصراً عنه ، وبينا أن قبساً من انوار هدايتهم وعلومهم سرى الى اوروبا فاضاء حالك ظلماتها، وأنار ليل جهالتها ، فلو كان الدين هو المانع من رقي المسلمين لم يبلغوا ما بلغوه من ذلك التقدم والفتح والتبريز في العلوم والصناعات والسيادة ايام مجدهم ، فلم يبق سبب يمنعهم من الترقي والرجوع الى ما كانوا عليه الا ترك الدين وتمسكهم بالقشور منه دون اللباب ، وقد قال الامام مالك : « لا يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به اولها » ومعلوم أن ما صلح به اولها هو العلم والعدل والجد والاجتهاد لتحصيل الفنون واقتباس العلوم والصناعات كما يأمرهم بذلك القرآن ويدل عليه كلام الرسول واصحابه والعلماء المتقدمين وكثير من المتأخرين ، فانتفى ان يكون الدين الاسلامي من اسباب موانع رقيهم وتقدمهم في سبيل العمران والتمدن ، بل ان تركهم اياه هو سبب خسارتهم وجهالتهم — فلو ان اللورد دعاهم الى التمسك بدينهم على نحو ما كان عليه آباؤهم الاقدمون لاصاب المرمى .

وأما قوله : ان الدين الاسلامي ينوب فيه الايمان الى درجة قصوى عن الوطنية في البلاد الشرقية » واستنتج من ذلك عدم اهليته لترقية اهله ، فهو وهم باطل ، لان الاسلام قول وعمل : فلا يغني احدهما عن الآخر فلا بد مع الايمان من الاعمال الصالحة التي تنجي

الانسان في أُخراه ، وتجعله سعيداً في دنياه — يعلم ذلك من قرأ القرآن وعرف السنة ودرس كتب العقائد الصحيحة — واما الوطنية فهي مما يأمر بهِ الدين الاسلامي فقد جاء في بعض الآثار : « حبُّ الوطن من الايمان » فأنت ترى أنه جعل محبة الاوطان والتفاني في صالحها وعمرانها وترقيتها جزءاً من الايمان ، وقد اختلف العلماء في تفسير الوطن فليرجع الى تفسيراتهم مَن شاء وليس هذا محلَّها .

يقول اللورد : « ان الانكليزي يُحاول اكثر من كل اوربي أَن يصل الى اسمى درجات الرقي من التمدن المسيحي الخ »

ما ذا يقصد جناب اللورد من قوله هذا ؟ ايّ تمدن مسيحي يعنيه وليس للنصرانية مدنية تُعرف ؟ أَيقصد بذلك الدول التي تُسمى نصرانية ام النصرانية نفسها ؟ ان كان الثاني فقد قدمنا أَن ما في الانجيل مخالف ومناقض لمدنية هذا العصر مناقضة تامّة ، وان كان الاول فلا يجوز ان نقول ان ذلك التمدن هو تمدن مسيحي ، لانه هو والقواعد المسيحية على طرَفي نقيض ، فان التاريخ يشهد ان الدول النصرانية لم ترقَ في سلم المدنية ولم تأْخذ باسباب التقدم الا بعد ان فصلت الدين عن السياسة او بالاحرى بعد ان تركت العمل بمقتضى اوامر الدين ونواهيه ، فما معنى تسمية هذا التمدن بالمسيحي بعد ذلك وهو مناقض لها وهي مناقضة له بل انها تناهضه وهو يناهضها ؟ — ان

امثال هذه السفسطات لا تروج الا على امثال اللورد — فليترك اذن هو وامثاله التشدق بالقواعد المسيحية الراقية والتمدن المسيحي الخ الخ ، فقد وضح الصبح لذي عينين ، وزال الغطاء والرين .

اما نحن المسلمين فلم نتأخر الا بعد ان تركنا الدين ، لان العقلاء منا ومنكم يعتقدون ان الدين الاسلامي دين أُخروي دنيوي سياسي مدني يصلح لكل زمان ومكان ، لان ما فيه من القواعد يُناسب كل امة وكل محيط وكل وقت — فقول اللورد كرومر في بعض المواضع من كتابه :

« ان من الاسباب التي اوجبت فشل الاسلام أنه جمع بين الدين والشرع فجعلهما جزءًا واحداً غير قابل للتفريق او التغيير فنتج من ذلك أن تلاشى من النظام الاجتماعي ما فيه من المرونة »

قوله هذا بعيد عن الحقيقة والصواب الاَّ ان قصد به تلك الاقوال التي اوجب العمل بها بعض متأخري الفقهاء ، وهي انما أُفتي بها لما يناسب زمن المفتي ومحيطه — ونحن انما نريد بالدين الاسلامي ما جاء في القرآن الكريم والسنة الصحيحة لا غير ، وان ماجاء فيهما من القواعد صالح ومناسب لكل وقت ، وما زاد على ذلك مماَّ يحدث من القضايا والوقائع فيرد اليهما نصاًّ او قياساً الخ ، وقد قدمنا فيما سلف ان المصلحة المرسلة والعادة هما من اهم قواعد الشريعة المطهرة يترك

العمل بالنص لها لانه لا يُنافيها كما وضحنا ذلك من قبل اتمَّ توضيح ·
وقاعدة : درء المفاسد مقدم على جلب المصالح » هي من تلك القواعد المكينة ، والاصول الركينة — نعم ان كثيراً من فقهاء اليوم لا يُراعون تلك القواعد الشرعية الثابتة بالادلة الصحيحة التي من مقتضاها ان تكون المرونة في الدين ، ولهذا يقول ارباب الاصلاح الديني من المسلمين بعدم التقيُّد بما قاله الفقهاء و بوجوب استنباط الاحكام من الكتاب والسنة على نحو ما كان عليه السلف الصالح ، لان تلك الاحكام التي افتى بها الفقهاء قبلنا موافقة لاحوال الهيئة الاجتماعية الاولى · فما كان منصوصاً عليه عمل بمقتضاه وما لم يُذكر حكمه يُرجع به الى قواعد الشريعة ، وكل ذلك بعد مراعاة المصالح العامة — فلو ان اللورد قصر كلامه على اقوال الفقهاء ووقف عند هذا الحد لكان خيراً له ، وكنّا واياه في الانتقاد سواء ، ولكنه شطّ بِهِ القلم فتجاوز الى الطعن في القرآن نفسه ، ووصفه بانه لا يصلح للعمل به في عصر المدنية والنور ، وأنه يبذر بذور الشر في نفوس مُتّبعيه — وقد ذكر المؤيد في رده عليه انه انتقل الى موضوع آخر واخذ يقابل بين طريقة الاسلام في عباداته و بين طريقة النصرانية فيها من صوم وصلاة متذرّعاً بذلك الى الطعن على اخلاق المسلمين وآدابهم ·

وهنا لا بد لي من التصريح بامر ما كنت اظن انه يخفى على امثال اللورد كرومر الذين لا يزالون يسكرون لذكر العالم المتمدن و يعنون بهِ العالم المسيحي ، و يتشدقون بالتمدن المسيحي والآداب المسيحية الخ ، وهو :

لا يخفى على كل مَن طالع التاريخ ان الامم الاوروبية كانت قبل الحروب الصليبية والاندلس في هُوَّة من الهمجية لا يُدرك لها غور ، ولا يُعرف لها قرار ، الى ان اختلطت بالمسلمين واخذت العلم والصناعة عنهم الى آخر ما فصلناه فيما تقدم — فلو اَن الدين المسيحي هو الذي رقَّى الامم الاوروبية كما يفهم من كلام اللورد وامثاله ، فَلِمَ لمْ يُرقِّهم في طول تلك المدة التي مرَّت عليهم وهم يتخبطون في ظلماتٍ من الجهل بعضها فوق بعض ؟ وداموا كذلك الى ان قبسوا قبساً من انوار التمدن الاسلامي الذي كان مشرقاً في الآفاق في ذلك الوقت . فازاحوا به عن سمائهم تلك الدياجي التي كانت تحجبهم عن رؤية الحقيقة والتمتع بمشاهدة عذارى العلوم والصناعات المفيدة ، وتلك الدياجي كان منشاؤها الجهل والتعصب الديني والرؤساء الذين كانوا يحرمون عليهم الانتقال عما هم فيهِ ، والاشتغال بغير ما تفرضه عليهم الكنيسة ، الى غير ذلك من الاحوال والامور التي هي مسطرة في التاريخ والتاريخ اكبر شاهد

على ما نقول ٠

اما العرب فكانوا قبل اعتناق هذا الدين دين الاسلام امةً همجيَّة بربرية لا تعرف الا الجهل وسفك الدماء ووأد البنات ، وغير ذلك من المنكرات ، ولمَّا اتاهم القرآن انار بصائرهم وهداهم الى ما فيهِ خيرهم في الدين والدنيا فترقَّوا في ربع قرن حتي وصلوا الى ما لم يصل اليه غيرهم في عدة قرون ، وما ذلك الا بفضل هذا الدين الذي كان السبب الوحيد لتخليصهم من ذلك الجهل الذي كان مرتكماً في قلوبهم — وما زالوا في الترقي والنجاح الى ان بلغوا ما بلغوا مما طبَّق الآفاقَ ذكره ، وملأَ الكونَ صيته ، الى ان كانت تلك الحروب المشؤومة التي شنَّها الغرب على الشرق ظلماً وجهلاً وعدواناً ، فتنبَّه الاول من سنته ، وأُخذ الثاني في غفلته ، وترك المسلمون علومهم وفنونهم ، وأضاعوا كثيراً من اوامر دينهم ، فكان اولئك الى التقدم سائرين ، وهؤلاء الى الضعف والتأخر صائرين ، ليقضي الله امراً كان مفعولا ٠

فالخلاصة ان الدين المسيحي لم يكن سبب رقيّ اوروبا وتمدنها ، وان الدين الاسلامي ليس العلَّةَ لتأَخر المسلمين وتقهقرهم ، ولكن الجدّ والاجتهاد يعملان العجائب ، ويُظهران الغرائب ، — فلو ان المسلمين جدّوا واجتهدوا كما جدّ اسلافهم ، خصوصاً وان نصوص القرآن

تأمرهم بذلك لبلغوا في مدة قريبة ما يُدهش العالم اجمع ، ولكن أَبوْا الا الخمول والراحة ، فلا حول ولا قوة الا بالله

فهو لا زهداً بها عنها نأى لكنِ الجدُّ يُذيب الأضلعا (١)

خاف أَن يسعى فيُدمي رجله فرأَى الراحة فيما صنعا

ايها اللورد لو رفعت برقع التعصب عن وجهك ، وانزلت رين الجور عن قلبك ، لظهر لك جلياً أنه لا علاقة بين التمدن الحديث وبين النصرانية بوجه من الوجوه ، ولأَقصرت عن اعجابك بهذا الرقي وتلك المدنية التي تدَّعي انها مسيحية . التاريخ يشهد والله خير الشاهدين ان هذا التمدن طاريء على الغرب وعارض له بعد ان اختلط اهلوه بالمسلمين واخذوا معارف الشرق ، وقد ظل الغرب وهو متمسك بالمسيحية بضعة عشر قرناً بعيـداً عن المدنية والعلوم والمعارف والصناعات النافعة الى غاية يخجل العقل من تصوّرها ، والقلم من تصويرها ، واللسان عن تعبيرها ، فما نفع اوروبا ما لديها من الدين ورجاله في رفعها مما كانت فيهِ من التأَخر والهمجية — على أَنها لما اخذت باسباب العلم وتقدمت نحو المدنيـة يوم اختلطت بالمسلمين قامت قيامة الاكليروس عليها وكفّروا كل من يتعلم غير

(١) البيتان للمؤلف من (الشرقيات)

علوم الكنيسة واضطهدتهم وقتلتهم وحرقتهم الى غير ذلك من الفظائع التي سودت صفحات التاريخ ، وشوهت وجه الانسانية . وألفوا لذلك العهد محكمة التفتيش لمناهضة من يروم تلقي العلوم التي أتتهم من المسلمين ، وقد أصدرت في مدة وجيزة حكماً بالاعدام على نحو ثلاثمائة واربعين الفاً ٣٤٠٠٠٠ فكانوا بين مقتول ومحروق ومشنوق ....

متى كان للمسيحية مدنية يُفتخر بها سوى تعاليم الكنيسة التي لا يجوز لاحدٍ أن يتلقى سواها ؟ وهي كما علمت اخروية بحتة ، وتأمر بالنفرة من كل رقي وتقدم دنيوي ، حتى انها تنظر الى الاغنياء نظرها الى اعظم المجرمين المذنبين ، فحرمت عليهم الدخول في ملكوت السموات ، فزمام امر الامة كان بيد رؤسائها الروحيين وبيدهم الحل والربط حتى انهم صرحوا أن ارادة السماء تابعة لارادتهم ، فما رأوه حسناً وان كان سيئاً فهو حسن عند الله بزعمهم ، فاثروا بذلك على نفوس الناس وملكوا ارادتهم وحريتهم ، حتى أيقن أتباع الكنيسة ان لا عزم لهم ولا ارادة : فما يأمر بهِ الكاهن فهو الحق وان كان خطأ صراحاً .

جاء في كتاب الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية بعد كلام ما نصه مع حذف بعض الجمل :

« من هنا أعرض المسيحيون الاولون عن شواغل هذا الكون وصدّوا عن سبيل النظر فيه اظهاراً للغنى بالايمان والعبادة عن كل شيء سواهما ، وحجروا على همم النفوس أن تنهض الاّ الى الدعوة الى ذلك الايمان وتلك العبادة، ووسائل الدعوة هي الايمان والعبادة كذلك ، فاذا نزعت العقول الى علم شيء من العالم وضعوا أمام نظرها كتب العهد القديم ، وحصروا العلم بين دفاّتها استغناء بالوحي عن كل عملٍ للعقل سوى فهمه من عباراته ، وليس يسوغ لكل ذي عقل فهمه ، بل انما يتلقّى فهمه من رؤساء الكنيسة خوفاً من الزيغ عن الايمان السليم (البروتستانت رأوا انه يجوز تفسير الكتاب لغير الكنيسة)

حصروا التعليم في الاديار ، ومنعت الكنيسة ان ينشر بين العامة الاّ ما كان دعوة الى الصلاح وتقرير الايمان على وجه ظاهر ، وبقي غير القسيسين في جهالة حتى بامور الدين وحقائقه واسراره — ظهرت ذات الذنب التي تُنسب الى « هالي » في سنة ٦٨٢ . فاضطربت لظهورها اوروبا ولجأوا الى البابا واستجاروا به فأجارهم وطردها من الجوّ فولّت في الفضاء مذعورة من لعنته ولم تعدْ الا بعد خمس وسبعين سنة !!

لم يكن يُسمح لاحد ان يُبدي رأياً يخالف صريح ما في الكتاب ، وعند ما اظهر (بلاج) رأيه في أنّ الموتَ كان يُوجد قبل آدم ،

اي ان الحيوانات كان يدركها الموت قبل ان يخطىء آدم بالاكل من الشجرة قام لذلك ضوضاء وارتفعت جلبة وانتهى الجدال والجلاد الى صدور امر امبراطوري بقتل كل شخص يعتقد بذلك ! !
يقول المؤرخ : وهكذا عدّ الاعتقاد بان الموت كان يزور الاحياء قبل آدم جريمة على الملك .

أُحرقت كتب البطالسة والمصريين بالاسكندرية على عهد جول قيصر ، ثم ان (تيوفيل) بطريك الاسكندرية انتحل ادنى الاسباب لإثارة ثورة في المدينة لإتلاف ما بقي في مكتبة البطالسة : بعض بالاحراق وبعض بالتبديد . وقال (اوروسيوس) المؤرخ انه رأى ادراج المكتبة خالية من الكتب بعد ان نال (تيوفل) الامر الامبراطوري باتلافها ، بنحو عشرين سنة .

ثم جاء بعد (تيوفيل) ابن اخته (سيريل) وكان خطيباً مفوّهاً له على الشعب سلطان بفصاحته ، وكان في الاسكندرية بنت تسمى « هيباتي الرياضية » تشتغل بالعلوم والفلسفة ، وكان يجتمع اليها كثير من اهل النظر في العلوم الرياضية ، وكان لا يخلو مجلسها من البحث في أمور أُخر خصوصاً في هذه المسائل الثلاث : من انا؟ والى اين اذهب ؟ وماذا يمكنني أن اعلم ؟ فلم يحتمل ذلك القديس (سيريل) مع ان البنت لم تكن مسيحية ، بل كانت على دين آبائها

المصريين ، فأخذ يُثير الشعب عليها حتى قعدوا لها وقبضوا عليها وهي سائرة الى دار ندوتها وجرّدوها من ثيابها ، واخذوها الى الكنيسة مكشوفة العورة وقتلوها هناك ، ثم قُطّع جسمها وجُرّد اللحم عن العظم ، وما بقي منها أُلقي في النار » اهـ

وجاء في مجلة « المقتبس » لصاحبها محمد افندي كرد علي الدمشقي ما نصه :

« قال (قوندي) في تاريخه : ان مسيحيي اسبانيا لما استولوا على قرطبة حرقوا كل ما طالت اليه ايديهم من مصنّفات المسلمين ، وعددها مليون وخمسون الف مجلد وجعلوها زينة وشعلة في يوم واحد ، ثم رجعوا على سبعين مكتبة في الاندلس وانشأوا يتلفون كلّ ما عثروا عليه في كل اقليم من مؤلفات العرب . وقال احد مؤرخيهم (ربلس) : ان ما أحرقه الاسبانيول من كتب الاندلسيين بلغ الف الف وخمسة آلاف مجلد . وذكر بعض المؤرخين أن احد جثالقتهم امر باحراق ثمانين الف مجلد في ساحات غرناطة عقيب استيلائهم عليها وانهم قبضوا على ثلاث سفن قاصدة مراكش تقلّ ما عزّ على المسلمين أن يخلّفوه وراءهم من اسفارهم ، فألقوها في قصر (الاسكوريال) ثم لعبت فيها النيران . وبقيت منها بقية رتّب فهرستها احد مسيحيي سورية ، وجعلوها الى اليوم مكتبة ينتابها علماء

الارض ، وكان بقي منها على عهد من رتّبها ١٨٥١ سِفراً . وقد ادّعى
قوم ان المسلمين حرقوا كتب الامم قبلهم في الفتح فعاملهم الدهر
بعملهم بعد : فقالوا أنّ عمر بن الخطاب (رضه) امر باحراق
كتب الاوائل وانه امر عمرو بن العاص باحراق مكتبة الاسكندرية
وفيها قسم كبير من حكمة اليونان وغيرهم من الامم الخالية ، وانهم
حرقوا مكاتب فارس في خلال الفتح ، وان عبد الله بن طاهر قائد
المأمون حرق في خراسان سنة ٢١٣ للهجرة ما كان باقياً من مؤلفات
المجوس ، الى غير ذلك مما يتذرعون به من الحجج ، وهو مردود
عند اهل التمحيص ونقدة الاخبار (١) » اه

---

(١) حريق مكتبة الاسكندرية ، لاتزال الالسن تلهج بذكره ، ويزعم
البعض ان عمر بن الخطاب امر عمرو بن العاص باحراقها ، وليس لما ادعوه
نصيب من الحقيقة ، فان المكتبة انتابها نكبات كثيرة من احراق وتبديل
وقد ذكر المؤرخون انه لما هاجت الفتنة على (بولوس) بسبب طلبهم (كيلوبطرا)
واراد الثائرون ان يفتكوا به و ياخذوها منه لينقموا منها فشرعوا في الاستيلاء
على اساطيله فلم يمكنه التخلص من هذا الخطر الجسيم الا باحراق المراكب
وقد سرت النار الى القصر الملوكي واحرقت المكتبة الشهيرة بالاسكندرية .
— على ان بعض مصائب هذه المكتبة كان على ايدي رؤساء الدين من
النصارى كما يشهد بذلك التاريخ ، وفيما اسلفناه من الكلام المنقول عن
الاستاذ الامام عبرة لمن اراد ان يعتبر ، فقد قدمنا ان (اورسيوس) المؤرخ
رآى بعيني رأسه مواضع الكتب خالية بنعق فيها البوم بعد أن أتلفت بنحو

هذا ولو اردت أن اعدّ لجناب اللورد تلك الجهالات والجرائم التي كانت في اوروبا قبل ان تري بصيص العلم لاُحتجت الى وقت كبير ومجلدات ضخمة ، ولكن فليُحمل نظره الى تاريخ اوروبا في القرون الوسطى التي يسمونها عصور الظلمات يجد صحة ما نقول

لما دخلت تلك العلوم علوم المسلمين الى اوروبا ورأى الراغبون فيها ذلك الاضطهاد العظيم والقتل والحرق من قبل رجال الدين — اخذوا يتعلمونها سرًّا وقد لاقوا في سبيل ذلك الالاقيّ ، ووجدوا

عشرين سنة ، وقد أتلفها (تيوفيل) بطريق الاسكندرية بعد ان نال الامر الامير اطواري باتلافها — هذا وان ماادعوه من احراق المسلمين لتلك المكتبة لو كان صحيحاً لذكره قدماء المؤرخين من المسلمين ولو باشارة خفية ، ومن راجع التواريخ المعتمد عليها كابن جرير والمسعودي والبلاذري وسيرة العمرين وغيرهم يعلم صحة مانقول ، بل لو صح لاوردهُ اصحاب كتب الحديث . أما وكل ذلك لم يكن فانما هي قصة موضوعة كغيرها من الموضوعات التي اخذها من لا روية ولا نقد قضية مسلمة توصلاً بها للنيل من الامام رضى الله عنه ، وليصموا المسلمين بكراهة العلوم والفلسفة ، على ان من بسطاء المسلمين من صدّق هذا الزعم وجعله حجة للتنفير عن الفلسفة وعلوم الاولين وهو من الخطأ بمكان سحيق وكل ما نسب للمؤرخين منقول عن القفطي من اهل القرن السادس وعن ابن العبري النصراني ، وهي كما علمت رواية مختلقة عن الوضاعين لعدم ثبوتها في كتب متقدمي المؤرخين بل ولا في كتب متأخريهم التي يُوثق بها ، والثابت في التاريخ ان الحريق طرأ على هذه المكتبة مرات قبل الاسلام . قال المقتبس : ولما فُتحت الاسكندرية في الصدر الاول لم يكن في مكتبتها —

نصباً شديداً ، وما زال العلم والجهل يتناهضان ويتصارعان الى ان صرع الحقُّ الباطلَ ،« ان الباطل كان زهوقاً » «بل نقذفُ بالحق على الباطل فيدمغهُ فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون »— « انما بقاء الباطل فى غفلة الحق عنه »

هذه هي المدنية المسيحية التي يفتخر بها جناب اللورد وامثاله، وهي كما علمت تناقض العلم والفلسفة وكل رقيّ —وان لهذه المدنية من مقاومة الفلاسفة والعلماء من كل ملة ما يحمرُّ له وجه الانسانية،

—من الكتب ما يدعو الى مد يد الفاتح اليهابشيء من الاذى والحرق ، ولذا لم يذكر هذا الخبر احد من معاصري الفتح من المؤرخين سواء كانوا من الروم او غيرهم » — وقد اعترف بذلك المنصفون من مؤرخي الافرنج ، قال بعض مؤرخيهم : حرقت مكتبة المتحف في خلال حصار قيصر لمدينة الاسكندرية ولكن كان لها فرع جعل في السرابيوم وفيه على ما يقال ثلاثمائة الف مجلد ، وقيل ان هذه المكتبة الثانية حرقها المسلمون في القرن السابع للميلاد ولكن الظاهر انها فقدت من قبل » اه وهذا هو الحق المعوَّل عليه — ولي في هذا الموضوع رأي ولم أرَ احداً ممن تصدى لهذه المسألة التاريخية اتي به وهو مما يجدر ايراده وذلك انه اشتهر في التاريخ ان عمر بن العاص كان ميالا بعد ما فتح مصر واستولى بجيشه على الاسكندرية لرجل يسمى يوحنا النحوي وهو رجل مسيحي من بقايا اليعقوبيين ، وكان في مبدأ امره ملاَّحا ثم مال الى العلم بسبب ما كان يسمعه من العلماء حين يركبون معه ، فنال من الفلسفة وهو ابن اربعين ربيعاً شيئا كثيراً حتى عُدَّ من فلاسفة عصره واطبائهم ومناطقتهم · قال الاستاذ الامام: يقول كثير من مؤرخي الغربيين ومؤرخي المسلمين: ان عمرو بن—

وتنفر منهُ النفوس الوحشية ، فضلاً عن البشرية . — جاء في كتاب الاسلام والنصرانية تحت عنوان : « مقاومة النصرانية للعلم» مانصه :

« لا اجد في التاريخ ذكرًا للعلم والفلسفة بعد ظهور المسيحية في مظهر القوة لعهد قسطنطين وما بعده الا في اثناء المنازعات الدينية التى يُفصل فيها تارة بسلطان الملوك وأُخرى بجمع المجامع وثالثة بسفك الدماء ، فتخمد شعلة العلم وينتصر الدين المحض . وانما الذكر كل الذكر لما بين المسيحية وما جاورها من الملل الاخرى من الحروب الدينية للحمل على العقيدة بما يعتقده المسيحيون ، وما يقع بين ملوك اوروبا من التسافك في الدماء باغراء رؤساء

— العاص سمع به فاستدناه منه واكرمه لعلمه ووقعت بينهما محبة ظهر امرها واشتهر حتى قال احد فلاسفة الغربيين : ان المحبة التي نشأت بين عمرو بن العاص فاتح مصر وبين يوحنا النحوي تُرينا مبلغ ما يسمو اليه العقل العربي من الأفكار الحرة والرأي العالي — بمجرد ما أُعتق من الوثنية الجاهلية ودخل في التوحيد المحمدي اصبح على غاية من الاستعداد للجولان في ميادين العلوم الفلسفية والادبية من كل نوع » — اقول هل يتصور ان يستأذن عمرو بن العاص امير المؤمنين عمر (رضه) باحراق مكتبة الاسكندرية وهو كما علمنا ميال للفلسفة والفلاسفة يحب مجالستهم و يستأنس بحديثهم ، ان هذا لمن التناقض ، فثبت ان هذا الخبر اختلاق بحت وكذب صراح . هذا ماأردت ايراده الآن عن حريق مكتبة الاسكندرية في هذه العجالة .

الكنيسة وامر ذلك معروف عند من له إلمام بالتاريخ وليس من موضوعنا الكلام فيه . ولكن ارى شبه نزاع بين العلم والدين ظهر في اوروبا بعد ظهور الاسلام واستقرار سلطانه في بلاد الاندلس واحتكاك الاوروبيين بالمسلمين في الحروب الصليبية »

وجاء في موضع اخر منه ما نصه :

« ظهر القول بكروية الارض — ذلك القول الذي عرفه المسلمون وصار رأياً لهم في اول خلافة بني العباس ولم تتحرك لهم شعرة في بدن — فاحدث اضطراباً شديداً في عالم النصرانية ولا يسع هذا المقال ما وقع من الحوادث في شأنه »

ثم ذكر الاستاذ بعد ذلك ما حدث لكريستوف كولمب عند ما اراد ان يقصد للسفر في المحيط الاطلانطيقي لاكتشاف ارض جديدة وما كان من اهتمام الكنيسة وحكم مجمع سلامانك بانه مخالف لاصول الدين . . . . ! !

ثم ذكر مقاومة الكنيسة لمشروع الاطباء بالحقن تحت الجلد ، وقال ان هذه الطريقة الطبية اكتشفت عند المسلمين في الاستانة العلية ثم نقلتها الى اوروبا امرأة تسمى (ماري مونتاجو) سنة ١٧٢١ فقامت قيامة القسوس وعارضوا في استعمالها — وذكر ايضاً ما حصل عند ما اكتشفت طريقة تطعيم الجدري — وذكر ايضاً مقاومة

القسوس لمشروع تسهيل الولادة بحجة انه يخلص المرأة من تلك اللعنة او تلك العقوبة التي سُجّلت عليها في سفر التكوين الخ

ثم ذكر الاستاذ تحت عنوان «البروتستانت او الاصلاح» مانصه :

«وربما يقول قائل ان هذا الذي ذكرت هو عمل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، ولكن قام في المسيحية مصلحون يرون ارجاع الدين الى اصل الكتب المقدسة ويُبيحون لعامة اهل الدين أن ينظروا فيها ويفهموها ، وقد رفعوا تلك السيطرة عن الضمائر والعقول من عهد ظهور الاصلاح والرجوع به الى اصول الدين الاولى فبزغت شمس العلم بالمغرب وبسط للعلم بساط التسامح وذلك لايمكن الا أن يكون جريًا مع طبيعة الدين

لا اذكر الجواب عن ذلك الا ماذكره البروتستانت انفسهم في تاريخ الاصلاح : استمرَّت عقوبة الموت قانونًا يُحكم به على كل مَن يُخالف معتقد الطائفة ، وقدامر (كلفان [١]) باحراق (سيرفيت) في جنيف لانهُ كان يعتقد أن الدين المسيحي كان قد دخل عليهِ شيء من الابتداع قبل مجمع نيقه . وكان يقول : ان روح القدس ينعش الطبيعة باسرها ، فكان جزاؤه على هذا أن يُشوى على النار حتى مات وهكذا أُحرق (فايتي) في تموز سنة ١٦٢٩

---

(١) كلفان هو الزعيم الثاني للبروتستانت

كان (لوتير[١]) اشدّ الناس إنكاراً على مَن ينظر في فلسفة (ارسطو) وكان ذلك المصلح يُلقّب هذا الفيلسوف بالخنزير الدنس الكذاب ونحو ذلك من الالقاب التي لا بأس بها اذا صدرت من اهل الغيرة على الدين في طريق الدفاع عنه !! — وكان كلفان اقلّ شتماً للفيلسوف من لوتير لكنه لم يكن احسنَ ظناً به ولا اوسعَ صدراً لمن يطّلع على شيء من كتبه . وكان علماء المسلمين يُلقّبون هذا

---

(١) لوثير هو الزعيم الاول للبروتستانت وقد ذكروا في ترجمته انه كان راهباً كاثوليكي المذهب الماني الجنس ، اراد اصلاح المذهب الكاثوليكي وقال بعدم مشروعية النظام الكنائسي والرهبنة على الاطلاق والاعتراف وتجسد القربان وغير ذلك من الامور التي اقرّ عليها ائمة المذهب الكاثوليكي منذ اجيال ، فحرمه البابا وحكم بمروقه عن الدين بعد أن كلفه بالتوبة والرجوع عن طريقته وحرّم مطالعة تآليفه ، ولكن لم يكترث لوثير بهذه الاجراآت بل استمر ينشر مذهبه ويؤيده بالبراهين حتى انتشر في جميع الاطراف ، وتبعه كثير من امراء المانيا ، وتُوفي سنة ١٥٤٦ م وكانت ولادته سنة ١٤٨٣ م بعد ان تزوج راهبة اتبعته وأتت منه بعدة اولاد ، وهو مؤسس المذهب البروتستانتي المشتق من لفظة (بروتستو) اي اقامة الحجة ، وهو المذهب السائد الآن في شمالي المانيا والدنيمارك والسويد والفلمنك وانكلترا واميركا الشمالية ومنتشر في غالب الجهات الاخرى ، واتبعه بعض اقباط مصر ، وانتشبت بسببه عدة حروب في المانيا وفرنسا أهمها الحرب المعروفة بحرب الثلاثين سنة التي استمرت من سنة ١٦١٨ الى سنة ١٦٤٨ وانتهت باستحصال البروتستانت على الحرية الدينية . ذكر ذلك محمد فريد بك في تاريخ الدولة العلية .

الفيلسوف « المعلم الاول » فتأمّل الفرق بين الفريقين !!

قالوا: البروتستانت قاموا يطالبون بالحرية في فهم الكتب المقدسة وبابطال السلطة على غفران الذنوب والتجارة ببيع الثواب والسعادة الاخروية وابطال عبادة الصور . ولكنهم لم يغيروا شيئاً من الاعتقاد بأنّ الكتب المقدسة هي نبراس الهداية في طريق العلم البشري كما انها منبع نور الايمان بالدين الالهي ، وأنه لا يُباح للعقل أن ينساق في نظره الى ما يخالف شيئاً مما حوته ، وأنه لا حاجة الى شيء من العلم وراء ماورد فيها . وبالجملة إنهم لم يبطلوا اصلاً من الاصول الستة(١) التي تقدمت ، الا انهم قالوا بمنع غلوّ الرؤساء في سلطتهم المبنيّة على الاصل الثاني في سابق قولنا

قالوا : ولهذا لم يكن مذهب الاصلاح أخفّ وطأةً على العلم ولا افضلَ معاملةً له من الكاثوليك ، لان كلا المذهبين يرجع الى

---

(١) الاصول الستة للنصرانية التي اشار اليها الاستاذ هي التي وردت في الاناجيل المعروفة الآن في ايدي المسيحيين وجاءت في كلام ائمتهم الاولين وهي : (١) الخوارق (٢) سلطة الرؤساء (٣) ترك الدنيا (٤) الايمان بغير المعقول (٥) ان الكتب المقدسة حاوية كل ما يحتاج اليه البشر في المعاش والمعاد (٦) التفريق بين المسيحيين وغيرهم حتى الاقربين . وقد فصل الاستاذ هذه الاصول في الكتاب المذكور ثم ذكر نتائجها وآثارها ، فليرجع اليه من شاء .

طبيعة واحدة ، ولم يكن لاهل النظر العقلي جزاء في كلتا اللّتين الا القتل وسفك الدم » اه

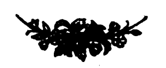
يا جناب اللورد : هذه المدنية المسيحية وهذه اعمالها حتى في عهد الاصلاح البروتستاني : مقاومة العلم والعلماء ، ومناهضة الفلسفة والفلاسفة ، وهذه هي المدنية الاسلامية ، وهذا ما أكسبه الاسلام للعالم اجمع من المدنية والعلوم والصناعات ، فهل اكسبت المسيحية مثل ذلك ؟

نعم ان عقلاء الامم الاوروبية لما رأوا تقدم المسلمين ومدنيتهم علموا ان لا رقيّ لهم ولا مجد الا بتقليدهم والسيرِ في طريقهم ، فالفضل بذلك لهم لا لدينهم ، لانه كما قدَّمنا لم يرقَ بهم في سلم المدنية حين كانوا متمسكين به وبقواعده ، وانهم لما تركوه وعملوا بغير ما يأمر بهِ واعتصموا بالعلوم والتمدن الاسلامي الذي يخالفه كل المخالفة من حيث الحياة الدنيا اخذت تنقشع عنهم سحب من الجهل والوحشية اظلّتهم زهاء سبعة عشر قرنًا . يدلّك على ذلك ان الاصلاح المدني لم يحصل الا على ايدي قوم من غير رجال الدين بذلوا الجهد في سبيله وسهلوا كل ما كانوا يجدونه من العقبات التي كانت تُلقى امامهم من ايدي رؤساء الدين ، الى ان ظهروا عليهم وتغلبوا على اوهامهم

في سنة ١٨٧١ كان النزاع بين حكومة بروسيا والبابا في عزل استاذ في احدى الكليات رأى رأياً لا يروق للحزب الكاثوليكي فحرمه البابا وطلب من الحكومة عزله ، وكانت احدى المعضلات السياسية ، غير ان عزيمة (بسمارك) نصرت مدنية القرن التاسع عشر على سلطان الكنيسة وأبقت الاستاذ وجعلت التعليم تحت السلطة المدنية .

وامثال هذه المسائل كثيرة مسطرة في كتب التاريخ فليرجع اليها مَن اراد التوسع ، وفيما قدمناه مقنع لما اراد الحق ورام البصر .

هذا ما اردنا ايراده من الكلام على المدنية الاسلامية ، وما جاء عرضاً من المقابلة بين المدنيتين ، توهيناً لاركان كتاب «مصر الحديثة» — وسنفرد للكلام على مدنية الاسلام وما جاء به من الاصلاح كتاباً مطولاً خاصاً بذلك نسميه «حياة محمد صلى الله عليه وسلم» — واليك الآن ردّ ما بقي من اعتراضات اللورد على الدين الاسلامي



التعصب في الاسلام

كلمة التعصب لهج بها كثير من الاوربيين ووصفوا بها المسلمين ، واللورد كرومر اليوم يضرب على الوتر الذي يضرب عليه اولئك المتعصبون من الاوربيين ، و يقصدون بذلك ان المسلم يحب الانتقام ويكره مَن كان على غير دينه ، وينسبون ذلك الى ما يبثّه فيهِ القرآن من روح الحقد والانتقام والتعصب على الاغيار ، الخ ما يتشدَّقون بهِ ، وهذا القول من اللورد وامثاله هو عين التعصب الاعمى ، لانهُ بعيد عن الحقيقة ، وليس له نصيب من الصحة ، وفيما قدمناه من الآيات القرآنية الآمرة بالمجاملة والعفو والاخلاق الكريمة مقنع لمن أَحبَّ الحق او أَلقي السمع وهو شهيد . ومع ذلك فلا بدَّ لنا الآن من مجاراة جناب اللورد والدخول معه في هذا البحث لِنُريه الحقَّ حقاً عسى أَن يتَّبعه ان كان معتقداً صحةَ مايقول ، أماَّ ان كان منشأ مايقوله التعصب الذميم كما نظنّ فلا تنفعه موعظة ، ولا يُوثّر فيهِ برهان ، ولو كان اجلى من الشمس .

عهدنا بالرجال العظام من كل امة أَنهم دائبون وراء ما يعود على هذا المجتمع بالخير ، فتري كلّ عالم عظيم يبثّ في قومه روح

التآلف والتحابّ والمودة ليُوجدَ فيهم عاطفة الإلفة مع الناس على اختلاف اديانهم ومذاهبهم ، ليكون الجميع اعضاء نافعين فى هــذا المجتمع ، يسعى كل فريق لنفع الآخر ، لتكون المنفعة متبادلة ، و بذلك ترقى الهيئة الاجتماعية في معارج التقدم والفلاح — اما جناب اللورد كرومر فعرَّفنا فى كتابه « مصر الحديثة » أنه ليس من اوائك العظام لأنه اتى فيهِ بما يهيج الصدور و يُنمي الاحقاد و يظهر تلك العداوة التي أَماتتها المدنية ، وعمل على اطفاء جذوتها العلماء العاملون من كل امة : فاخذ يصف المسلمين بالتعصب و يذمُّ قرآنهم و يصفه بما لا يعرفه مسلم ، فكأَن جناب اللورد مسَّهُ ماسٌّ من جنون فهو يهرف بما لا يعرف . على أنهُ لو درس القرآن حقَّ الدرس لوجد فيهِ كثيراً من الآيات الدالة على وجوب معاملة الاغيــار بالحسنى ومجاملتهم ، ووعدت من يمدُّ اليهم يدَ سوء بالجزاء في الدنيا والعقاب في الاخرى ، وقد قدمنا كثيراً من تلك الآيات فيما سبق ، و يجدر بنا الآن أَن نورد بعضاً مما قاله محمد رسول الله (ص) مما يأْمر بالحسنى ومكارم الاخلاق والصفح عن المذنب :

قال عليهِ الصلاة والسلام : « المسلم مَن سلم الناسُ من يده ولسانه » وهذا كلام عام يشمل المسلمين وغيرهم ، فليس بمسلم على الحقيقة مَن يُؤذي احداً من المخلوقات ، و يدخل في هذا العموم

الذميّون والمعاهدون ومَن هم في أَمان المسلمين ، فايذاؤهم وايذاء المسلم سواء ، لانّ لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، قال الرسول : « من اذى ذمياً فأنا خصمه ومن كنت خصمَهُ خصمتهُ يوم القيامة » وقال مَن آذى ذمياً فقد آذاني » فترى أنه بهذا الكلام يُعلّمنا أَن نعامل الاغيار كما نعامل اهلَ ديننا من الرفق وعدم الاذية . وسنفرد لهذا الموضوع فصلاً خاصاً في هذا الكتاب .

وقال الرسول ايضاً : « مَن غشّ فليس منّا » اي ليس من الاسلام في شيء مَن غشّ احداً لانّ الغش حرام لكل عباد الله ، فانهم عيال الله كما قال الرسول (ص) :

« الخلق كلهم عيال الله ، فأَحبهم اليهِ أنفعهم لعياله »

فتراه في كلامه لم يخصّ بوجوب المعاملة بالحسنى المسلمين فقط بل عمّم الكلام حتى يشمل الناس اجمعين ، وهذا هو ما يليق بجنابهِ الشريف ليحقّق ما وصفه بهِ الله تعالى في القرآن الكريم حيث قال : « وانك لعلى خُلُق عظيم » وقال : « وما أُرسلناك الاّ رحمةً للعالمين » ورحمته (ص) بالعالمين ليست قاصرة على عالم العقلاء فقط بل انها شملت العقلاء وغيرهم ، فقد كان يأمر بالرأفة والرحمة بجميع المخلوقات حتى قال : « مَن رحم ولو ذبيحةَ عُصفور رحمه الله » وقال : « في كلّ ذاتِ كبدٍ حرّى أجر » وقد قلنا في شرح هذا الحديث في كتابنا « لباب

الخيار في سيرة المختار » ص ٧٣ مانصه : (الحرَّى : العطشى مؤنث الحرّان بمعنى العطشان . والمعنى أنّ الانسان يُؤجر بكل عمل خيرٍ يعمله ولو بسقي الماء للمحتاج اليهِ من بني آدم وغيرهم من الحيوانات والبهائم ، وقد ورد في الحديث : « غُفرَ لامرأةٍ مومسةٍ مرّت بكلاب على رأس رُكيٍّ يَلْهث كاد يقتله العطش فنزعت خفّها فاوثقته بخمارها فنزعت له من الماء فغُفر لها بذلك » رُكيّ : جمع رَكيَّة وهي البئر ، ويلهث : معناه يُخرج لسانه من العطش . ولا يخفى ما في قول الرسول هذا من الحثّ على الرفق بالحيوان والشفقة عليهِ ، وقد ورد كثير من الاحاديث الدالة على تأكّد ذلك والحاثة عليهِ ، فليستفد منها ما شاء كل من يسعى بانشاء الجمعيات للرفق بالحيوانات من اهالي اوروبا وغيرهم) اه ما كتبناه هناك

وقال الرسول ايضاً: « أدِّ الامانةَ الى مَن ائتمنك ولا تَخُن مَن خانك » — وقال : « البرُّ حسن الخُلُق والاثم ما حاك في صدرك وكرهتَ أن يطَّلع عليهِ الناس » وقال : « تركُ الشرِّ صدقة » فهو بهذا الكلام يُعلّمنا أنّ في تركنا الشرّ ثواباً من الله وصدقة فكيف اذا قُرن تركه بفعل الخير والسعي وراء نفع العباد — وقال : « ثلاث مَن كُنّ فيه فهو مُنافق وان صام وصلى وحجّ واعتمر وقال اني مسلم : اذا حدّث كذب ، واذا وعد أخلف واذا ائتُمِنَ خان ، فهو يرشدنا

بهذا الكلام الى أنّ الاعتقاد اذا لم يصحبه عمل الخير وترك الشرّ والتخلّق بالاخلاق الكريمة فهو نفاق، لانّ العمل الصالح أثر الايمان الصحيح، فمن آمن حقّ الايمان، انزجر بزواجر القرآن، وقد ورد: الايمان غرثان، اي جائع يطلب العمل كما يطلب الجائع الطعام — وقال: «صنائع المعروف تقي مصارعَ السوء، وصدقة البرّ تُطفيء غضب الربّ، وصلة الرحم تزيد في العمر» — وقال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الارض يرحمْكم مَن في السماء» وقال: «صِلْ مَن قطعك وأحسن لمن اساء اليك، وقلِ الحقّ ولو على نفسك» — وقال: «الظلم ظُلمات يوم القيامة» — وقال: «العفو لا يزيدُ العبدَ الاّ عزًّا، والتواضع لا يزيده الاّ رفعة، وما نقص مال من صدقة» — وقال: علّموا ويسّروا ولا تُعسّروا، وبشّروا ولا تنفّروا، واذا غضب احدكم فليسكت» — وقال: «الغادر يُنصب له لواءٌ يوم القيامة» — وقال: «الغلّ والحسد يأكلان الحسنات كما تأكل النار الحطب» — وقال: «فكّوا العاني وأجيبوا الداعي وأطعموا الجائع وعودوا المريض» — وقال: «الفضلُ في أن تصلَ مَن قطعك، وتُعطيَ مَن حرمك، وتعفوَ عمّن ظلمك» — وقال: «قلِ الحقّ وان كان مُرًّا» — وقال: «قولوا خيرًا تغنموا واسكتوا عن شرٍّ تسلموا» — وقال: «كلّ معروفٍ صدقة» —

وقال: « كَبرتْ خيانةً ان تُحدّثَ اخاكَ حديثاً هولك به مُصدّق وانت له به مكذّب » — وقال : « ليس الشديدُ بالصُّرَعة[1] ، انما الشديد مَن يملك نفسه عند الغضب » — وقال : « لقد شَقيتُ ان لم أعدلْ » — وقال : « ليس لاحدٍ فضلٌ على احدٍ الاّ بدينٍ او عملٍ صالحٍ » — وقال : « لا ايمانَ لمن لا امانةَ له ، ولا دينَ لمن لا عهد له » — وقال : « لا يؤمن احدكم حتى يحبَّ لاخيهِ ما يُحبُّ لنفسهِ » — وقال: « لا ضررَ ولا ضرار » — وقال :« من حُسنِ اسلام المرء تركه مالا يَعنيهِ » — وقال : « مُداراةُ الناس صدقة » — وقال : « مكارم الاخلاق اعمال اهل الجنة » — وقال: « مَن دلَّ على خيرٍ فله مثلُ اجر فاعلهُ » — وقال:« مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرمْ ضيفَه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقُلْ خيرًا او لِيصمتْ » — وقال : « مَن أتاهُ اخوه مُتنصّلا[2] فليقبلْ ذلك منهُ ، مُحقاً كان أَو مُبطلاً ، فان لم يفعلْ لم يَردْ عليَّ الحوض » — وقال :« ناموا فاذا انتبهتم فأَحسنوا » — وقال :« هل يكبُّ الناسَ على وجوههم الاّ حصائدُ أَلسنتهم » — وقال :« هل

---

(١) الصرعة هو من يصرع الناس اي يغلبهم (٢) متنصلاً متبرئاً من ذنبه ·

تنصرون وترزقون الاَّ بضعفائكم»

وهذا قليل من كثير مماَّ تفوه بهِ الرسول عليهِ الصلاة والسلام في الآداب والحكم والاخلاق ، وقد نقلت هذه الاحاديث من كتابي «لباب الخيار في سيرة المختار» على أَنَّ كتب الحديث مملوءة بامثال هذه الكلمات الكبيرة ، والحِكَمَ الخطيرة ، وما هذه الاحاديث بالنسبة لما في القرآن الكريم الاَّ قطرة من بحر ، وما هي الا تفسيرٌ لما جاء فيهِ من الآيات الحاثَّة على التمسك باهداب الفضائل ، الزاجرة عن الميل الى الرذائل ، ومن يحُقّق يرَ صحةَ ما نقول . على أَنَّ فيما أَوردناه من الآيات القرآنية فيما قبل ، وما أُوردناه هنا من الاحاديث مقنعاً لمن اراد الحقَّ وطلب الصواب .

فهل بعد هذا يحقُّ للورد كرومر أُن يقلب الحقيقة ، ويظهرها في ثوب الباطل ، ويقول إِن الاسلام هو الذي يبثُّ في نفوس متَّبعيه الاحقاد والتعصب على المخالفين والذين يدينون بغير دينه؟ — كيف يجوز للورد كرومر أُن يقول في كتابه « مصر الحديثة »: إِنَّ الاسلام يُرَبي في اهله عاطفة الكره والانتقام ، ومهما عملتَ مع المسلم من خير ، ومهما انقذته من خطر ، ومهما اسديته من نِعَم ، فانك لا تقدر أَن تستفيد من عملك شيئاً اكثر من أَن تحول بينك وبين انفجار بركان تعصبه عليك فعلاً » ؟ — فما هذا التعصب ؟

وما هذا الزور والبهتان بعد أن وضح الصبح لذي عينين ؟

من الغريب أن جناب اللورد كرومر يريد ان يؤيد مدعاه بغير ما هو دليل له ، وذلك لسوء فهمه او قصده ، فيعمد الى بعض آيات القرآن الواردة في معنى خاص وسبب خاص ، فيذكرها دليلاً على دعواه من غير تثبيت او نظر . فمما استدل به قوله تعالى: « واذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء» الخ الآيات — لو علم جناب اللورد أن هذه الآيات واردة في حق المشركين الذين كانوا يتربون الاذى للمسلمين ، ويهيجون عليهم القبائل ليوقعوا بهم ، حتى لكم مثلوا على مراسح الجور والعداء روايات تبكي القلوب القاسية ، وتنفر منها الوحوش الضارية ، — لعدل عما فاه به ، ولكنه ابى الا ان يتكلم بما لا خبرة له به ، واظهر الحقيقة في غير ثوبها ليموه على قومه ، كي ينظروا الدين الاسلامي بعين الاحتقار ، و يرمقوه بطرف الازدراء — ولو فهم اللورد ختام هذه الآية و كيف تعلمهم أن يكونوا مع ألد اعدائهم الذين يتحينون الفرص لاغتيالهم وابادتهم عن وجه البسيطة : لحكم بأن القرآن سن سنناً في الحروب هيهات ان تصل اليها اعظم دولة متمدنة ، اليوم وقبل اليوم ، ولو كان في قلبها من الحنو والرفق مالا يمكن أن يوصف : أنت تراه

انهُ امرهم بمقابلة أعدائهم بالقتال ليردُّوا كيدهم في نحرهم ، حتى لا يمتد أذاهم ويتّسع الخرق على الراقع ، ثم امرهم بالرفق والاحسان اذا ظهروا عليهم ، بأن يستاسروهم ، ثم خيَّرهم بعد ذلك بأحد امرين: إمّا ان يمنّوا عليهم ويُخلوا سبيلهم بلا مقابل — وقد مدح هذه الخلة لتقديمه إيّاها على اختها — وإمّا ان يُطلقوا سبيلهم بفداء من المال يفدون به أنفسهم :

لما انتصر المسلمون على المشركين في غزوة بدر الكبرى ، واسروا من اسروا منهم استشار الرسول اصحابهُ في الاسرى قبل نزول الوحي عليهِ في شأنهم — فمنهم من اشار عليهِ بقتلهم ، ومنهم من اشار باستبقائهم ، فمال الرسول الى قولهم واستبقاهم وطلب من قومهم ان يفدوهم ، فتآمروا فيما بينهم على ان لا يُعجّلوا في طلب الفداء كيلا يتغالى المسلمون فيه ، فلم يلتفت الى ذلك ابو وداعة السهمي وكان ابوه في الاسرى ، فخرج خفيةً حتى اتى المدينة وفدى اباه باربعة الاف درهم ، وعند ذلك بعثت قريش في فداء اسراها ، وكان الفداء من اربعة الاف درهم الى الف درهم ، ومن لم يكن معه مال للفداء وكان يُحسن القراءة اعطوه عشرة من غلمان المدينة يعلّمهم ، وكان ذلك فداءه .

ظهر مما تقدَّم انَّ الاسلام عظَّم شأن الاسرى وامر باكرامهم

وعدم إهانتهم الى درجة لا توصف

ومما يدلك على أن الآية في موضوع الذين جاهروا المسلمين بالعداوة ونصبوا لهم الشرّ وقلبوا لهم ظهر المجنّ قوله تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحبّ المعتدين » وقوله عزّ وجلّ : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا اليهم ، إن الله يحبّ المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم ، ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون » — فحكم القتال انما هو على من صارح بالعداوة والخروج على المسلمين لا غير كما تدل عليه آيات القرآن الكريم ، حتى لو خرجت طائفة من المسلمين بغياً وعدواناً وجب مقاتلتها حتى تخلد الى السكينة وتثوب الى الحق كما قال تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ، إنّ الله يحبّ المقسطين »

وليس عجيباً من اللورد كرومر أن يقول غير الحق بعد أن ثبت أنه رجل متعصب جاهل بتاريخ الاسلام وقرآنه وتعاليمه القويمة ، ولكنّ الأعجب منه أن ينسب الى الاسلام ما هو براء منه في

حين انه لم يعرف عن حقيقته شيئاً ·

***

وهنا امر لا بدَّ لي من التصريح به وهو مهمٌّ في بابه ، وطالما خالج نفوس غير العارفين بتاريخ الدين من الاجانب : وهو مسألة الجهاد ، حتى ان كثيراً يعتقدون ان امر القتال في الاسلام من جملة بقايا الهمجية والتعصب ،بل انهم يعتقدون ان الدين الاسلامي لم يقم الاَّ بالسيف واجبار الناس على قبوله واُعتناقه — وهذه دعوى ليس عليها دليل الا التعصب الذميم ولا بدَّ من توضيح هذا المقام حتى يظهر كالشمس في رابعة النهار · وقد كنت كتبت عن ذلك فصلاً مهماً في كتابي « خيار المقول في سيرة الرسول » وهاك خلاصة ما كتبتهُ فيه :

« مَن درس سيرة الرسول حقَّ الدرس يعلم انهُ لم يكن معهُ سيف يضرب به اعناق الناس لاكراههم على الدين ، ولا رمح يطعن به صدورهم لاتباع طريقة المسلمين ،بل كان الامر قاصراً على الدعوة الى الحق والتبشير بالاسلام ، بالادلة الباهرة ، والحجج الدامغة ،وقد عارضه في ذلك مَن عارضه ، ومانعه من مانعه ، بغياً وحسداً وطمعاً في الرياسة في الدنيا ، واكثر المعارضين يعلمون انهُ الحق من ربهم ، ولكنها الحميَّة الجاهلية ، والنخوة الشيطانية ، اعمت قلوبهم ،

وخيَّمت بظلامها على صبح عقولهم ، فحادت بهم عن الصراط المستقيم ، والسبيل القويم ، ولم يتركوا نوعاً من الاذى ، ولا ضرباً من الضرر والاستهزاء الا فعلوه — كل ذلك والرسول صابر على اذاهم ، مُتحمل بلواهم ، ولولا أنَّ الله كان يُنزِل عليه من الآيات ما يُقوِّيهِ على الصبر امام ما كان يُلاقيه من اذى قريش ، ولولا ما وضعه فيهِ من القُوى الكاملة ، لَمَا صبر على ذلك الضيق شهراً من الزمن ، حتى إنهم الجأُوه واصحابه للهجرة مراراً — فهل بعد ذلك من رجل غمرٍ بعيد عن الصواب غير نقادٍ للامور يقول : إنَّ الدين الاسلامي لم يقم الاَّ بالسيف واجبار الناس لا بالدعوة ، والاَّ فما معنى تلك الحروب الهائلة التي حصلت ؟

— الدين الاسلامي قام بالدعوة ، والسيفُ انما شُرع لحمايتها ودفع المعارضين لها الذين يُلقون العقبات امام تقدمها السريع ، الا ترى كيف بقي الاسلام بمكة مُضيَّقاً عليهِ من اهلها ثلاث عشرة سنة ؟ وكيف انَّ الوفود كانت تأْتيه للاسلام طوعاً ورغبةً بلا ارسال مبشرين ، بل بمجرد السماع لانهم كانوا يعرفون صفته من مجاوريهم اهل الكتاب ؟ — مَن وضع السيف في رقاب الاشعريين ؟ من طعن بالرمح صدور الانصار اهل المدينة ؟ من اجبر وفود نجران وهم من اهل الكتاب ؟ من قهر وفد دوس ؟ من من .... ؟ هؤلاء

الاقوام الذين آمنوا هم كانوا سببَ انتشار الاسلام ، وسطوع شمسه على الانام ·

الجهاد امر مدنيّ لا بدَّ منه لحياة الامم لتدفع به شرّ من ارادها بسوء لتبقى على حياتها وتحفظ كيانها ، ولولاه لاغتال القويّ الضعيف ، لانّ الظلم اثر من آثار النفوس كما قال الشاعر العربي :

والظلم من شيم النفوس فان تجدْ ذا عفّةٍ فلعلّة لا يظلمُ

الا ترى انّ الدوَل جمعاء لو لم تتخذ الاحتياط لنفسها لدفع بوادر الاعداء لانهك جسمها غولُ الاضطهاد والظلم والاستبداد ، وجعلها طعمةً تلوكها افواه العدوّ ؟ — اللهم نعم —

ان الله اَذِنَ للمسلمين ان يُدافعوا عن انفسهم ليردّوا تيار التعصب عليهم من مُجاوريهم ، وبذلك يأمنون شرّهم ، ويسلمون من أذاهم · والجهاد في الاسلام انما هو من باب المقابلة بالمثل كيلا تمتدّ الاذيّة ويتسعَ الخرق — الا ترى انّ المسلمين لم يقاتلوا قريشاً الاّ بعد ما قاسوا منهم ما قاسوا ، وساموهم سوء العذاب ؟ : فمن مُضطَهد ومن مرجوم بالحجارة ومن مُخرَج الى الرمضاء عارٍ عن ثيابه موضوع عليه الحجارة الضخمة ، ومن مُعذَّب بالحديد المحميّ عليه بالنار ، ومن ومن · · · ·

وأوضح برهان على ماتقدم انّ الرسول لم يتعرّض الاّ لقريش

دون سائر العرب ، لكن لما تمالأ غيرهم من مشركي العرب واتحدوا مع الاعداء امر الله بقتال المشركين من العرب كافة بقوله: « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين » وبذلك صار الجهاد عاماً لكل من ليس له كتاب من الوثنيين الذين قلبوا للمسلمين ظهر المجن واظهروا العداوة وجيّشوا الجيوش لمقاتلتهم ، وقبل ذلك لم يكونوا يقاتلون الا اهل مكة اعداءهم ، والله لم يأمرهم ان يحاربوا الا من حاربهم كما قال تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين » ولما وجد المسلمون خيانة من اليهود لمساعدتهم المشركين في حروبهم نصح لهم بان لا ينزعوا الى ثورة ولا ينقضوا العهود فلم يلتفتوا الى ذلك بل فصموا عرى العهد ونقضوا ما ابرموه مع المسلمين من عدم الهياج ، فلما فعلوا ذلك ولم يرجعوا عن غيهم امر الله بقتالهم بقوله : « وإما تخافنّ من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ، إنّ الله لا يحب الخائنين » وقتالهم بسبب ما فعلوه صار واجباً عقلاً وشرعاً لانهم هم الذين سعوا الى حتفهم بظلفهم بنقضهم العهود ومساعدتهم اعداء المسلمين « وما ظلمهم الله ولكن كانوا انفسهم يظلمون » وبذلك يأمن المسلمون شرّهم وجانبهم .

وربّ قائل : انّ محمداً تعجّل بالقتال وكان الاولى ان يبطيء

به ، ولعمري: ايُّ بطءٍ اثقلُ من مكثه ثلاثَ عشرةَ سنة بين تيار التعصب وأمواج العَداء وأنياب الاذى ، فلما بلغ السيل الزُّبى، وأشفى الامر على ما اشفى ، و بلغ الصبر المنتهى ، ووصل الامر الى الغاية اذن الله للمسلمين بمقاومة الاعداء حتى يكسروا حدَّتهم، و يرجعوهم عن طغيانهم وعسفهم ، فقال : « أُذِن للذين يُقاتلون بأنهم ظُلموا ، وانَّ الله على نصرهم لقدير ، الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلاّ ان يقولوا ربُّنا الله » فأنت ترى انّه اذِن لهم في القتال بسبب ظلم الاعداء لهم وإخراجهم من ديارهم اي من مكة الى المدينة والى الحبشة ، وليس لهم من ذنب الاّ انهم قالوا ربنا الله وتركُهم ما كان يعبد آباؤهم من الباطل والاوثان ، وطرحهم تلك العادات السيئة والخرافات المضلّلة — وقد كان المشركون كثيرًا ما يُؤذون الرسول والذين آمنوا معه ، حتى إنهم كثيرًا ما أتمروا على قتله ، حتى ليلة اراد الهجرة الى المدينة . فلما اخفقوا سعيًا بثّوا الجواسيس لذلك . ولما رأوا خيبة مسعاهم جعلوا لمن يأتي بهِ قتيلاً او اسيرًا جائزة وافرة . ولم يكن الاذى قاصرًا عليه بل تناول اصحابه ايضاً . فقد كانوا يؤذونهم اشدَّ الايذاء . ويعذبونهم بانواع من الاذى تنفر منها الطباع الوحشية . بلهَ النفوس البشرية . وكان هؤلاء يأتون الرسول وهم بين مضروب ومجروح ومشجوج رأسه . يتظلّمون اليهِ من فعل المشركين بهم .

فيقول لهم اصبروا فاني لم أُؤمَرْ بالقتال . وقد صبروا على ذلك الى حين الهجرة، وهذه الآية هي اول آية نزلت في القتال بعد ما نُهي عنهُ في سبعين آية ونيّفٍ من القرآن ، ومع ذلك فالقتال خاصّ بمن تعرَّض لهم بسوء او ارادهم بشرّ . — ولولا أنّ الله امرهم بمقابلة الاعداء بالقتال لصدّ اذاهم لكانوا طعمةً لهم ، ولهلكوا مع الهالكين، فهل يُريد من يُنكر أمر الجهاد على الاسلام ان يغتالهم العدوُّ ، ويُهلكَ الحرثَ والنسل ، والمسلمون مغلولو الايدي ، يرسفون بقيود السكون والسكوت ، والصبر والذلّ والهوان ؟ . . . .

فالخلاصة ان مدافعة الاعداء ومقاومتهم لاطفاء نار عدائهم وفتنتهم امر مفروض عقلاً وشرعاً « ولولا دفع اللهِ الناسَ بعضَهم ببعضٍ لَهُدِّمتْ صوامعُ وبِيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكرُ فيها اسم الله كثيرًا ، ولينصرَنَّ اللهُ من ينصرهُ انّ الله لقويٌّ عزيز » — حتى ان السيد المسيح صلوات الله عليهِ الذي أطنبَ في امر السلام كان يكره أَعداءه ويُحبُّ أَن يقبض عليهم كما في الانجيل : « أَماَّ هؤلاء أَعدائي (اليهود) فأتوا بهم قدّامي واذبحوهم تحت أقدامي » وفيه ايضاً : ماجئتُ لالقي سلاماً بل سيفاً »

على أَن الجهاد لم يكن خاصاً بالدين الاسلامي بل هو موجود في سائر الشرائع السماوية والوضعيّة ، ومن راجع تاريخ الاديان

يعلم صحة ما نقول

هذه الامة اليهودية حين كان لها حكم في الارض وسلطان على الناس : فقد كان من اصول عقائدها أن القرية التي يعبد اهلها الاصنام يُقتلون كلهم مع دوابّهم بحدود السلاح ، وتُحرق القرية ومتاعها واموالها بالنار ثم لا تُبنى ابداً » ومن اراد الاطلاع على الوقائع الدموية التي مثَّلوها، وعلى تاريخ حروبهم مع الاغيار وعلى معتقداتهم في ذلك فليرجع الى كتب العهد عندهم ٠

على ان الشريعة المسيحية التي يُبالغ المتعصبون لها بانها تأمر بالسلام ورفع الحروب لم يقم لها قائمة ولم تنتشر الا باكراه الناس عليها وضرب اعناق من يمتنع عن ذلك : راجع تاريخ النصرانية منذ انتشارها على يد قسطنطين الاول وما سفكه من الدماء في سبيل تعزيزها ، وانظر ما فعله ملك الملوك الرومي فى القرن السادس للميلاد ، فان صفحات التاريخ ملطخة بدم اليهود وغيرهم ممن أُجبروا على التنصر : فقد كانوا يظلمون اليهود بانواع من العذاب والقتل وسفك الدماء والجلاء عن الاوطان وهدم معابدهم ومنعهم من العبادة ، وليس لهم ذنب سوى أنهم يدينون باليهودية مع انهم من رعاياهم ٠ وقد كان من عادة البورتقال أنهم يحرقون اليهود بالنار ويجتمع نساؤهم ورجالهم يوم يُحرقون ٠ وكان دأب الانكليز أنهم

اذا بغى الامراء على ملكهم قتلوا عدداً من اليهود وافراً وشدّوا على اموالهم نهباً ، ليظهروا شوكتهم وقوتهم ، فكأن اليهود أمامهم كالأشجار التي تُجرَّب فيها السيوف ليظهرَ مضاؤُها وجودتها ٠ وأنظر الى ما فعله قسطنطين السادس بعد ان استشار امراءه : فانّه أَمر أن يُجبر على اعتناق الدين المسيحي كلّ مَن في السلطنة الرومية ، و يُقتلَ كلّ مَن لم يتنصّر ٠٠٠ بل راجع تاريخ الاندلس (اسبانيا) عند تلقّص ظلّ الدولة الاسلامية عنها ، وكيف ان المسيحيين أَجبروا المسلمين واليهود على التّنصُّر واضطهدوهم ، و مَن لم يقبل بذلك أخرجوه من بلده صاغراً ذليلاً محروماً من كل ما يملكه ، الى آخر ما جرى من الفضائح والاهوال التي يشيب لها الاطفال وتدمى لها القلوب ، في حين أن المسلمين لم يُجبروا احداً على اعتناق الاسلام ، ولم يُقاتلوا قوماً لاِجبارهم على قبوله ، ومَن يُقلّب صفحات التاريخ يعلم صحة هذا القول :

خطر لاحد الملوك العثمانيين أَن يُجبرَ بعض النصارى القاطنين في اوربا العثمانية على الاسلام او الرحيل من البلاد بسبب ما كانوا يُحدثونهُ من الهياج و إقلاق الراحة فعارضه فى ذلك بعض العلماء واظنهُ شيخ الاسلام في ذلك العهد محتجاً بأَنّ هذا العمل مخالف لما جاءت بهِ الشريعة وأَمر بهِ القرآن ، لأنهُ اباح لكل دينهُ وحفظ

له رسومهُ ، فان من مبادئه القويمة « لكم دينكم ولىَ دينِ » فامتنع السلطان عما عزم عليه احتراماً للدين ، وعملاً بالكتاب الكريم — على أنَّ ماأراد عملَهُ في ذلك الوقت هو من السياسة الحكيمة ، لأنهُ رأى انَّ وجود هؤلاء الاقوام داءٌ عضال في جسم المملكة لا تُستأصل شأفته الاَّ بتطهيرها منهم وحملهم على احد امرين : إمّا الاسلام ، واما الجلاء عن البلاد ، وبذلك تكون الدولة آمنــة من حوادثهم وتعصبهم الديني الذميم — ومَن رأى قلاقلهم ومفاسدهم اليوم يحكم بأنَّ ما كان اراده السلطان في ذلك الحين هو عين السياسة ولبُّ الصواب ، ولكنهُ امتنع لانَّ الشرع الشريف لا يُجيز ذلك ، فخضع مُستسلماً لاوامره رحمه الله رحمة واسعة

وذكر في تاريخ الدولة العلية تاليف (محمد فريد بك) أنَّ السلطان الغازي (ابراهيم خان الاول) لما افتتح مدينة (خانية) اهم ثغور جزيرة كريد انتقم البنادقة بحرق ثغور (بتراس وكورون ومودون) من بلاد مورة ، ويُقال ان السلطان اراد في مقابله ذلك قتل المسيحيين اجمع ولولا معارضة المفتي اسعد زاده ابي سعيد افندي لتمَّ هذا الامر ، ولو تم لكان يلحق بالدولة عار عظيم كما لحق بمسيحيي اسبانيا لما ارتكبوه من القتل والفتك بالمسلمين بعد فتح مدينة غرناطة [1]

---

(١) ذكر في سبب غزو جزيرة كريد ان (قيزلر آغاسي) استأذن —

ومن قابل بين امثال هذه الحادثة وبين ما جرى للمسلمين في بلاد الاندلس يعلم تساهل المسلمين وتعصب الاغيار ، وانا نورد بعض ذلك اظهاراً للحقيقة :

جاء في كتاب « الاسلام والنصرانية » تحت عنوان : « اضطهاد المسيحية للمسلمين واليهود والعلماء عامة » مانصه :

« لما كان ابن رشد هو الينبوع الذي تفجَّر منه ماء العلم والحرية في اوروبا على زعم القوس ، وكان ابن رشد استاذاً يتعلَّم عنده كثير من اليهود وقد اتهموا بنشر افكاره وآرائه ، ثم هو مع ذلك مسلم — صُبَّ غضب الكنيسة على اليهود والمسلمين معاً ، فصدر الامر في ٣٠ مارس سنة ١٤٩٢ بانَّ كل يهودي لم يقبل المعمودية في ايّ سنٍّ كان وعلى ايّ حالٍ كان يجب ان يترك بلاد اسبانيا قبل شهر

—السلطان في القصد الى بيت الله الحرام فلما اذن له بذلك سافر ، فلما كان في الطريق هاجمته مراكب رهبان مالطة وقتلوه واخذوا منه ولداً ظنوه انه ابن السلطان ثم ظهر لهم خطاؤهم فربوا الولد على الدين المسيحي وادخلوه في طائفتهم واشتهر عند الافرنج باسم (بدري اوتومانو) اي الاب العثماني ، وبعد ذلك نزل الرهبان الى جزيرة (كريد) فاحسن البنادقة وفادتهم واكرموهم فاغتاظ السلطان لذلك غيظاً شديداً ثم امر بتجهيز عمارة بحرية قوية لفتح جزيرة كريد فجهزت وسارت باحتفال حافل تحت قيادة (يوسف باشا) الى ان القت مراسيها امام مدينة (خانية) في ٢٩ ربيع الاول سنة ١٠٥٥ الموافق ٢٤ يونية سنة ١٦٤٥ وافتتحها بدون حرب تقريباً لعدم وصول الدونانمة اليها في الوقت المناسب

يوليو (تموز) ومن رجع منهم الى هذه البلاد عُوقب بالقتل ، وأُبيح لهم ان يبيعوا ما يملكون من عقار ومنقول بشرط ان لا ياخذوا في الثمن ذهباً ولا فضة وانما ياخذون الاثمان عروضاً وحوالات . ومَن ذا الذي يشتري اليوم بثمن ما ياخذه بعد ثلاثة اشهر بلا ثمن ؟ (يعني انّ اموال اليهود تكون مباحة بعد جلائهم الذي يتمّ في يوليو) وصدر امر (تور كماندو) انْ لا يُساعدهم احد من سكان اسبانيا في امر من امورهم . وهكذا خرج اليهود تاركين ما يملكون ناجين بارواحهم ، على أنه لا نجاة لكثير منها فقد اغتالها الجوع ومشقة السفر مع العدم والفقر

وفي فبراير (شباط) سنة ١٥٠٢ نشر الامر بطرد اعداء الله المغاربة (المسلمين) من اشبيلية وما حولها — من لم يقبل المعمودية منهم يترك بلاد اسبانيا قبل شهر ابريل (نيسان) وأُبيح لهم أن يبيعوا ما يملكون على الشرط الذي وضع لليهود . ولكن وضع للمسلمين شرط آخر وهو ان لا يذهبوا في طريق يؤدّي الى بلاد اسلامية ومَن خالف فجزاؤه القتل . فهؤلاء المساكين نُفوا جميعاً الى القتل ، ان لم يكن قتل الجزاء عند الرجوع فالموت مُلاقيهم بالتعب مع العرى والجوع [1] » اه

---

(١) اقول كان الامر كذلك : فقد روي التاريخ ان الذين خرجوا من —

اقول: هل تُقابل هذه الاعمال باعمال المسلمين مع من دخل تحت عهدهم وذمتهم، بل مع الذين عاهدوهم ثم نقضوا العهود ونبذوا المواثيق واعانوا عليهم اعداءهم واَطلعوهم على عوراتهم :

روى التاريخ اَن « عُمير بن سعد الانصاري » قدم على عمر بن الخطاب وقال له : ان بيننا و بين الروم مدينةً يُقال لها (عربسوس)

— بلاد الاندلس كانوا الوفاً كثيرة ، فمنهم من خرج الى تلمسان ووهران وجمهورهم خرج الى تونس ، وتسلط على كثير منهم مَن لا يخشى الله من سكان البوادي ونهبوا اموالهم واكثر النهب والاخذ وقع على الذين ذهبوا الى تلمسان وفاس ، واما الذين ذهبوا الى تونس فاكثرهم سلم من ذلك . وذكر بعض المؤرخين ان الاسبانيين كمنوا لهم في بعض الطرق فقتلوا منهم كثيرًا وشدوا على اموالهم نهبًا . وقد عمَّر هؤلاء الخارجون من الاندلس كثيرًا من القرى الخالية في تلك المواضع التي ذهبوا اليها ومنهم جماعة بسلا وتطاون والجزائر ، ووصل جماعة منهم الى القسطنطينية العظمى « دار الخلافة العلية » والى مصر وبلاد الشام وغيرها لانهم كانوا عددا كثيرًا لا يحصيهم الا الله . قال في نفح الطيب : والسلطان الذي أُخذت منه غرناطة آخر سلاطين بنى الاحمر الذي انقرضت انقراض دولته مملكة الاسلام بالاندلس ومحيت رسومها هو السلطان ابو عبدالله محمد ابن السلطان ابي الحسن ابن السلطان سعيد ابن الامير علي ابن السلطان يوسف ابن السلطان الغني بالله محمد ، واسطة عقدهم ، والمشيد مبانيهم الانيقة ، وسلطان دولتهم على الحقيقة ، ابن السلطان ابي الحجاج يوسف ابن السلطان اسماعيل ابن الرئيس ابي سعيد فرج بن اسماعيل بن نصر بن قيس الانصاري الخزرجي رحمهم الله جميعاً .

وان اهلها يخبرون عدوّنا بعوراتنا ولا يُظهروننا على عورات عدوّنا ، ولهم علينا عهد ،واستشاره في امرهم ، فقال عمر : اذاقدمت نخيّرهم ان تُعطيهم مكان كل شاة شاتين ، مكان كل بقرة بقرتين ومكان كل شيء شيئين ، فان رضوا فأَعطِهم اياه وأجلُهم (ابعدهم عن البلاد) واخربها ،فان ابوا فانبذ اليهم واجّلهم سنة ثم اخربها »
—اقرأ هذا وقابل ثم انظر كيف ابى المسلمون ان ينقضوا عهدهم الذى عاهدوهم بهِ ، مع انهم هم البادئون بنقض العهد، ثم انظر الى ما رواه التاريخ ايضاً وهو :

ان الاعداء لما حاصروا مدينة غرناطة اصاب المسلمين وقت الحصار شدة الجوع وتفاقمت عليهم الخطوب فكاتبوا العدو في الصلح واشترطوا شروطاً وعقدوا مواثيق ومكّنوا الاعداء من غرناطة ، وكانت الشروط سبعاً وستين شرطاً منها: تامين الصغير والكبير في النفس والاهل والمال، ومنها ابقاء الناس واما كنهم ودُورهم ورباعهم وعقارهم ومنها اقامة شريعتهم على ما كانت وابقاء المساجد والاوقاف كذلك ، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم، وان لا يغصبوا احداً، ومنها أنَّ من اراد الجواز منهم الى المغرب لا يُمنع ، الى غير ذلك من سائر الشروط . ثم ان النصارى نقضوا تلك الشروط شيئاً فشيئاً ونكثوها عروةً فعروة، الى ان آل الامر بهم الى إجبار المسلمين

على التنصر ، حتى صاروا يقولون لبعض المسلمين: ان جدك كان نصرانياً فاسلم في زمن كذا فلابدّ ان ترجع نصرانياً كما كان اجدادك السابقون ! ! . فلما اشتدّ الخطب وبلغ التعصب كل مبلغ وقعت فتنة بينهم فصدر الامر من سلطان النصارى بقتل جميع المسلمين الاّ من تنصر فانه ينجو من القتل فتنصّر قوم في الظاهر خيفة من القتل ، وامتنع قوم من التنصّر فطلبهم النصارى فاجتمعوا في بعض القرى وتحصّنوا بها ، فجمع لهم العدوّ الجموع واستأصلهم عن بكرة ابيهم قتلاً وسبياً ، وبقي جماعة من المسلمين صعدوا جبلاً واحتموا فيه فقاتلهم الاعداء فقتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً ، ثم أُخرجوا على الامان الى فاس بعيالهم وما خفّ من اموالهم . ثم ان الذين اظهروا التنصر خوفاً ولم يكونوا متنصرين في الباطن كانوا يعبدون الله خيفة ويصلون كعادتهم فعلم بهم اعداؤهم فشدّدوا عليهم في البحث حتى انهم احرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ومنعوهم من السلاح حتى السكين فضلاً عن غيرهـا من الحديد . وكان بعض المسلمين متحصناً في بعض الجبال وكان يجري بينهم وبين اعدائهم بعض المناوشات الى ان تغلب عليهم النصارى ولم يُقيّض الله لهم ناصراً ، الى ان كان الوقت الذي اخرجوهم فيه وهو سنة الف وعشرة (١٠١٠) ﻫ

من قابل اعمالهم هذه باعمال المسلمين عند الفتح ، وكيف انهم كانوا يعاملون من يحكمونهم من الرأفة وحفظ اموالهم ودمائهم وصيانة معابدهم وسائر احوالهم يجد الفرق الشاسع والبون البعيد :

انظر كيف نقضوا عهود المسلمين واستذلوهم وأجبروهم على اعتناق دينهم ، ومن لم يقبل ذلك قتلوه اوحرقوه اوطردوه . ان المسلمين ما افتتحوا بلداً من البلاد الا وكان سكانه مساوين للمسلمين في جميع الحقوق ، ولم يُسمع أنهم نقضوا عهداً او شرطاً من الشروط التي اشترطها عليهم الذين مكّنوهم من افتتاح بلدانهم ، فقد كانوا احرص الناس على الوفاء بالعهود والزمهم لشرعة الانصاف والعدل مع المغلوبين ، وكانوا اذا صالحوا قوماً على شيء وكتبوا لهم بذلك عهداً صار العهد سنّةً متّبعة لمن بعدهم في معاملة اولئك المعاهدين ، لا يحيد عنها احد من المسلمين ، واعظم شاهد على ما نقول التاريخ وشهادة الحس .

هذا وانّ امر العهود العمرية التي كتبها عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمن دخل تحت ذمة المسلمين معروف مشهور لم يزل العمل بمقتضاه جارياً في بلاد المسلمين خصوصاً البلاد التي تحت رعاية الدولة العلية العثمانية ايدها الله ، وكان بودّي أن لا اذكر شيئاً منها هنا لولا أنّ بعض مَن لا خلاق لهم لفّقوا جُملاً مختلفة

لا اصل لها لاغراضهم السيّئة ونسبوها الى الامام (رضه) فظنّ بعض البسطاء انها هي العهود العمرية ، وليست منها في شيء ، وانما الثابت في التواريخ الصحيحة هو ما يأتي :

كتابه لاهل ايلياء (القدس)

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبدُ الله عمر امير المؤمنين اهلَ إيلياء من الامان : أعطاهم أماناً لانفسهم واموالهم ولكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها وسائر ملّتها ، انهُ لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم ولا يُنقص منها ولا من حيّزها ولا من صُلبهم (صلبانهم) ولا من شيء من اموالهم ، ولا يُكرهون على دينهم ، ولا يُضارُّ احد منهم ، ولا يسكن بايلياء معهم احد من اليهود ، وعلى اهل ايلياء أنْ يعطوا الجزية كما يعطي اهل المدائن ، وعليهم أن يُخرجوا منها الروم واللصوص ، فمن خرج فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد وعليه ما على اهل ايلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع الى اهله ، فانه لا يُؤخذ منهم شيء حتى يُحصد حصادهم . وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمّة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا اعطوا الذي عليهم من الجزية . شهد بذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية

ابن ابي سفيان ، وكتب وحضر سنة ١٥ » اه

وامتن دليل وانصع برهان على ما قدمناه من تسامح المسلمين وتعصب دول النصرانية أنَّ الاسلام ما حلَّ مقاطعة الا وحفظ لاهليها حقوقهم الشخصية ، ورسومهم الدينية ، ولم يُجبروا احداً على اعتناق الاسلام : يدلك على ذلك ان تنظر الى البلاد التي هي تحت حوزة المسلمين اليوم والتي هي تحت تصرُّف غيرهم قبل الفتح الاسلامي فترى الاغيار لم يزالوا على اديانهم محافظين على رسومهم — ولو نظرت الى البلاد التي دفع التعصبُ الدينيّ الدولَ المسيحيةَ على تخليصها من ايدي المسلمين لرأيتها خالية من المسلمين ، وقد اُتُّخذت مساجدهم كنائسَ و بيوتاً وأصطبلات ، وما ذلك الاّ لإجبار اهاليها على التنصر واضطهاد من لم يقبل بذلك ، فمنهم مَن قُتل او حرق ومنهم من قبل مُكرهاً كما قدمنا ذلك ، في حين ان الاسلام لم يفعل شيئاً من هذا قط :

نقل الينا التاريخ أنَّ عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ورجع قاصداً الى الفسطاط مرَّ بناحية الطرانة فاستقبله فيها سبعون الف راهب و بيد كل واحد منهم عكاز طالبين منه الامان على انفسهم وأَديارهم فكتب لهم أَماناً بذلك — ومن قابل بين فعله هذا و بين ما فعله الافرنج بعد أَن حاصروا القسطنطينية ثم دخلوها بمواطئة

الافرنج الذين كانوا مقيمين فيها : وذلك انهم شبّوا فيها النيران فاشتغل الروم سكان القسطنطينية الاصليون باطفائها ، ففتح الافرنج الابواب وأدخلوا قومهم ، ووضعوا السيف في رقاب الروم وهم مشتغلون باطفاء النار ، وداموا على ذلك ثلاثة ايام يقتلون حتى الاساقفة والرهبان والقسوس ، وقد كان هؤلاء قد خرجوا اليهم من كنيسة (اياصوفيا) وبيدهم الاناجيل والصلبان يتوسّلون اليهم بها ليرفعوا عنهم السيف ، فلم يلتفتوا اليهم ولم يرحموهم ، وقتلوهم اجمعين ، ونهبوا الكنيسة ، وهم من ابناء دين واحد — من قابل هذا العمل بما فعله عمرو وسائر الفاتحين من المسلمين يعلم درجة تساهل المسلمين ورأفتهم ورحمتهم حتى باعدائهم .

قلنا في صدر هذا المقال انما شرع السيف لحماية الدعوة ممن ارادها او اراد المسلمين بسوء ، وهذا هو عين ماتفعله دول النصرانية اليوم : فانها ترسل البعوث والمبشرين ومعهم القناطير المقنطرة من الذهب والفضة للتبشير بالدين المسيحي ، وقد اخذت على عاتقها ان تحميهم ممن يعارضونهم ، وكم سفكت فى هذا السبيل دماء اقوام تعرّضوا لبعض افراد المبشرين باهانة لا تذكر ، وكم اراقت دم كثير من الابرياء ، الى غير ذلك من الاعمال المنكرة

﴿ ولباب القول ﴾ ان الدين الاسلامي لم يقم بالسيف وانما قام

بالدعوة ، والدعوة حياة الاديان · نعم قام بالدعوة اليه ببيان فضائله وذكر حكمه وآدابه ونشر محاسنه ، والجهاد انما شرع لحماية الدعوة ودفع المعارضين لها ، وازالة العثرات من امامها ، ولولا المعارضة لما أُمر المسلمون بالقتال ، والقرآن اعظم شاهد على ما نقول · ومن أَبى الاَّ العناد، والقدح بغير الزناد ، فنتركه وشأنه ، وفيما قدمناه كفاية لمن كان له قلب او أَلقى السمع وهو شهيد « لا اكراه في الدين قد تبيَّن الرشد من الغي » ا ه ما كتبناه في خيار المقول في سيرة الرسول صلى الله عليهِ وسلم ·

***

هذا وانَّ من نظر في التاريخ يرى انَّ تعصب الأمم النصرانية لم يكن قاصرًا على من خالفهم في الدين ، بل تناول من خالفهم في المذهب ايضًا ، ومن طالع اخبارهم وحروبهم وفظائعهم في ذلك حكم بأَنهم لم يرعوا لمن خالفهم عهدًا ، ولم يرقبوا فيهم إلاًّ ولا ذمّةً ، بسبب تلك الملاحم التي سوَّدت وجه التاريخ ، حتى تركت المؤَرخين بعدهم يكتبون اخبارهم بالدموع التي كانوا يُسيلونها من احداقهم على صفحات موَّلفاتهم :

عج بطرفك نحو ما فعله الكاثوليك مع مخاليفهم من الفرق النصرانية التي لم تخضع للبابا ، فترى حروبًا شُنَّت ، ودماء سُفكت ،

وفتناً اُشتعلت نارها ، وتمثيلاً وتعذيباً تنفطر لاجلها الاكباد — كل ذلك لاجبار مَن خالفهم على أتباع مذهبهم . ثم أنظر كيف وضعوا قوانين مُقتضاها عدم تمكين احد غير كاثوليكي أن يعيش في مملكتهم ، وتحالفت ملوكهم على هذا الامر ومَن خالف ذلك فيكون شعبه غير مُقيَّد بسلطته ، بل يخلع ربقة سلطانه ونير حكمه — انظر مصائب البروتستانت مع الكاثوليك وما حلَّ بهم يوم ضعفهم وقلة عددهم وعِددهم ، ومن اشهرها حادثة (برتملي سنتهلر) التي سفك فيها الكاثوليك دماء البروتستانت اخوانهم فى الدين ليلاً على حين غرة ، وقتلوا النساء والرجال والصبيان والبنات ، حتى انَّ من يقرأ تلك الاخبار يظنُّ أنَّ فعلهم ذاك ليس واقعة حقيقيَّة ، بل هو رواية وهمية ، مثَّلها اولئك الاقوام على مرسح الانسانية ، بلبــاس الوحشيَّة ، وفعال الحيوانات الضارية — انظر ماعمله البروتستانت مع الكاثوليك بعدان أُستدَّ ساعدهم واُشتدَّ عضدهم ، واُقرأ ماسنّوه من القوانين التي نحواها اجبارهم على اتباع مذهبهم وخطتهم

قال في كتاب « الاسلام والنصرانية » :

« ما من عقيدة ظهرت وأُريد تقريرها من فريق ونازع فيها فريق الا وقدسالت لها الدماء ، فليراجع التاريخ لتتمثّل ارض مصر مصبوغةً بدماء المسيحيين من فريقين مختلفين عند ما أُريد تقرير

عبادة العذراء واتخاذها لله أماً »

وجاء فيهِ ايضاً :

« قال البابا (انوسان) الثالث عند الكلام في مصادرة الذين يُخالفون العقيدة الكاثوليكية : « لايجوز ان يُترك لاولاد الجاحدين سوى الحياة ، وترك الحياة لهم منّة واحسان » فلم يقصر الجزاء على الجاحدين ، ولكن عدّاه الى اولادهم ، وعدّ ترك الحياة لاولادهم يتمتعون بها ضرباً من الاحسان عليهم لانه لا حق لهم في ان يعيشوا وقد جحد آباؤهم » اه

وروت الينا اخبار هذا العصر ، عصر المدنية والعلم عصر النور والتقدم : ان ملك الانكليز البروتستاني حضر في الكنيسة الكاثوليكية بلوندره ليشاهد الصلاة عن نفس ملك البورتقال ، فهاج عليهِ السواد الاعظم وجمهور الامة من الانكليز وكادوا يجاهرون بخلع طاعته لانهُ خالف دستور المذهب وحضر الصلاة الكاثوليكية — اقول : وهل يُقابل ذلك بما رواه التاريخ عن الخليفة المعتصم العباسي ؟— وذلك ان طبيبه (سلمويه) النصراني مات فاسف عليهِ وامتنع من الطعام ذلك اليوم حزناً ، وأمر باحضار جنازته الى الدار وأن يُصلّى عليها بالشمع والبخور على عادة النصارى ، ففعلوا ما أمر به وهو يشاهد ذلك ، ومع هذا فهو خليفة المسلمين وامير المؤمنين !!

على أنّ ما صدر من الامم المسيحية من التعصب الديني ضدّ بعضهم وضدّ غيرهم من اليهود والمسلمين واليهود وما شنّوه من الحروب الهائلة في هذا السبيل : كثير لاتتسع له هذه المقالة — ومَن قابل بين اعمال المسيحيين من حيث التعصب الديني واجبار الاغيار على قبول دينهم ، بل اجبار بعضهم بعضاً على التمذهب بمذاهبهم ، مَن قابل مناهضتهم للعلم والفلسفة والعلماء والفلاسفة من كل ملة ودين — من قابل اعمالهم تلك بالاسلام وقوانينه العادلة علم امتياز هذا الدين واهله

هذا وليس في الاسلام ما يُسمى بالحروب الدينية ، وإن وجد شيء من ذلك فليس من امر الدين في شيء ، بل إنّ من نظر نظرة المنصف يعلم أنها حروب سياسية ليست لباس الدين ، وهذا أمر معروف لدى كل مُؤرخ عاقل سبر التاريخ بمسبار الانصاف

جاء في كتاب « الاسلام والنصرانية » :

« لم يُسمع في تاريخ المسلمين بقتال وقع بين السلفيّين (الآخذين بعقيدة السلف) والاشاعرة مع الاختلاف العظيم بينهما ، ولا بين هذين الفريقين من اهل السنة والمعتزلة مع شدة التباين بين عقائد اهل الاعتزال وعقائد اهل السنة سلفيّين واشاعرة — كما لم يُسمع بأَن الفلاسفة الاسلاميين تألفت لهم طائفة وقع الحرب بينها وبين

غيرها . نعم سمع بحروب تعرف بحروب الخوارج كما وقع بين القرامطة وغيرهم، وهذه الحروب لم يكن مثيرها الخلاف في العقائد: وانما اشعلتها الآراء السياسية في طريقة حكم الامة ، ولم يقتتل هؤلاء مع الخلفاء لاجل ان ينصروا عقيدة ، ولكن لاجل ان يغيروا شكل حكومة . وما كان من حرب بين الامويين والهاشميين فهو حرب على الخلافة ، وهي بالسياسة اشبه ، بل هي اصل السياسة » اهـ

﴿ والخلاصة ﴾ أن الدين الاسلامي خالٍ من التعصب الموهوم ، بريء مما ينسبه اليه المتعصبون ، لا يأمر اهله الا بما فيه الرأفة والرحمة لمجاوريهم وللناس اجمعين . وهو يساوي المسلم وغير المسلم في جميع الحقوق وفي كل ما يؤول الى السعادة الدنيوية ، ولا يجيز له أن يعادي الا من صارحه بالعداوة والاذى وجاهره بالسوء كما جاء في القرآن الكريم : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم : أن تبرّوهم وتقسطوا اليهم ، إن الله يحب المقسطين . انما ينهاكم عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم : أن تولّوهم ، ومن يتولّهم منكم فاولئك هم الظالمون » وخلاصة ما تأمر به الآية الشريفة موالاة من لم يمدّوا الى المسلمين يد الاذى والعدوان والبرّ بهم والاحسان اليهم ، وان لا يوالوا من اضطهدوهم وارادوا

إذلالهم ، بل يجب عليهم الدفاع عن حوزتهم حتى لا يتقلّص ظلهم ، ويُقوَّض بناء دينهم ومجدهم . وهذا هو غاية ما توصّلت اليه الدول المتمدنة اليوم ، غير أنها لم تحسن معاملة مَن لم يتطاول الى ثلم بيضة مجدها ، ولم يتعرَّض لها بسوء ، بل انها دائماً تطمح ببصرها لاغتياله واستئصاله طمعاً في زيادة املاكها ، وامتداد سلطانها .....

على ان الاسلام لو عمل بفحوى الآية الانجيلية كما يريد جناب اللورد كرومر : « من ضربك على خدك الايمن فأدر له الايسر » لما قامت له قائمة ، ولا عزَّت له شوكة ، بل ظلَّ مضيقاً عليهِ مضطهداً ، وكانت عاقبتهُ تغلُّب الشرك والجهل عليهِ حتى يُبيدَه عن وجه الكرة ، ولساد الجهل والشرك وفساد الاخلاق ، وعمَّ ذلك الارض ، فكان منهُ التلاشي والعدم ، بل لظلت اوربا متكسعة في ظلمات الجهل راسفةً في قيود العمى لان اهليها كما قدمنا لولا المسلمون لَمَارأوا بصيص العلم ، ولما عرفوا شيئاً من معنى الحياة ، ولما شاهدوا شيئاً من المدنية

يرى جناب اللورد كرومر فيما قدمناه انَّ الاسلام او القرآن لا يُربّي عاطفة الكره وحب الانتقام في نفوس متبيعه ، بل انه يأمر بالمسالمة والموادعة ، وان يعيش المسلم مع غيره براحة وطمأنينة وسلام ،

ولم يُبح له أن يقاتل و ينتقم الا ممن مدَّ اليهِ يد السوء ، ومع انه اباح له ذلك حرَّضه على العفو والصفح . وما قدمناه من الآيات والاحاديث والحوادث كافٍ لاثبات هذه الدعوى ودحض مزاعم جناب اللورد .

قال الكاتب الاجتماعي المسيحي الدكتور شبلي افندي شميل في مقال له نشره في جريدة المؤيد عنوانه « القرآن والعمران » بعد كلام ما نصه :

« ولكن الكاتب الباحث الذي يتعقب كلام كل من الكتابين (القرآن والانجيل) يجد فيهما كثيراً من مثل قولهِ (القرآن) : « اقتلوهم حيث ثقفتموهم » بعد قوله : « قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحبُّ المعتدين » ومثله قوله (الانجيل): « ما جئت لالقي سلاماً بل حرباً » بعد قوله : « مَن لطمك على خدك الايمن فحول له الايسر » الى غير ذلك من المفارقات التي لا يذهب مغزاها على العاقل ، ولا مكانها من القول ، ولكن قد تضرُّ كثيراً بالجاهل (مثل كرومر) وتكون عنده سبباً للتشبث السقيم ، وللاخذ في سباسب الجدال العقيم ، فتضر بالدين و بمصلحة العمران معاً . لذلك رأى العقلاء من المؤمنين في النصرانية والاسلام وجوب رد هذه القضايا المشتبهة التي قد تلتبس على الافهام فتبدو مخالفةً لمصلحة

الاجتماع الى مبدأ الدين الجوهري الذي تقدم ذكره والذي هو فرض الشارع الحقيقي وتأويلها بحسب ذلك، حتى صار الاجتهاد امراً لازماً في الدين . والحق يُقال ان رجال الدين في الاسلام قد برّزوا في هذا الامر كثيراً في العصور الاولى ، وفاقوا النصرانية فيه، لان كبار أئمتهم كانوا من كبار الفلاسفة ايضاً ، لا في الدين فقط بل بكل معنى الكلمة الحقيقي، حتى بلغت علوم الفلسفة التي اخذوها عن اليونان في نهضتهم الاولى أَقصى مراقيها ، بخلاف النصرانية فان الفلسفة طمست فيها على عهدها الاول، وعدّت من المحظورات فيها خلا النظريات المتعلقة باللاهوت المسيحي، وبقيت كذلك الى عهد الانشقاق العظيم الذي حصل في النصرانية في اوائل عصور النهضة في اوربا » اهـ

خلاصة ما يأمر به الاسلام من معاملة الاغيار

ان ماقدمناه في الفصل السابق (التعصب في الاسلام) كافٍ لدحض اقوال كرومر فيما افتراه على الدين من هذا الوجه ، وانّا ذاكرون في هذا الفصل القصير خلاصة مايأمر به الشرع الشريف من معاملة غير المسلمين ، وقد قدمنا طرفاً من ذلك في الفصول السابقة :

غير المسلم اما ان يكون ذمياً او معاهداً او مُؤَمَّناً او حربياً
فالذمىّ هو مَن دخل تحت حوزة المسلمين وذمّتهم ودفع شيئاً من
المال يستعين بهِ الحاكم على صرفهِ لترتيب المحافظين للدفاع عنهُ ،
وله من الحقوق مالنا وعليهِ ما علينا ، غير أنه لا يكلَّف حرْباً ولا
دفاعاً ، بل ان المسلمين مُكلَّفون بالدفاع عن حوزتهِ ومقاومة مَن
أَراده بسوء ، ومنحته الشريعة الحريّة بدينه ومذهبه وسائر شؤُونه
ان لم يكن من ذلك ضرر بالمجتمع كمجاهرته بشرب الخمر مثلاً ، ولو
نقض الذمة لايخرج عن كونه ذمياً

والمعاهدون هم مَن دخلوا في عهد دولة من الدول الاسلامية
وكان بينهم وبينها عهود ومواثيق فلا يجوز نقض عهدهم ولا خيانتهم
الا ان كانوا هم البادئين فيدخلون حينئذ في قسم الحربيين بعد النصح
لهم وتحذيرهم

والمؤَمَّنون هم مَن دخل في بلاد المسلمين من الحربيين وطلبوا
الامان من الحاكم ، فلايجوز ايضاً خيانتهم ولا نقض امانهم — ويجب
معاملة جميع من تقدم بالحسنى واللين وعدم الجور كما وردت الآثار
بذلك وقد قدمنا شيئاً منها فيما قبل

هذا وَلْيُعلم أَن الامان الذي يُعطيه الفرد من المسلمين ولو
امرأَة لمن استأْمن هو كأَمان الجميع فلا يجوز نقضه كما في خبر امّ

هانيء عند ما أجارت مشركاً في الحرب فأجاز ذلك الرسول وأَمضاه وقال لها ما معناه : « إناَّ أُجرنا مَن أُجرتِ يا أمّ هانيء »

والحربيون هم الذين أشهروا السيف في وجوه المسلمين او مَن تحت أَمانهم وذمّتهم ، فهؤلاء يُقاتلون الى أن يرجعوا عن غيّهم وعدائهم مقابلةً لاعتدائهم — وليس كل مَن نقض ذمة المسلمين يُعدُّ حربياً كما يفهم ذلك بعض الضعفاء في الدين وكثير من غير المسلمين ، بل الحربيّ هو مَن قدّمنا لا غير — وأَماَّ الدول اليوم فهي من قسم المعاهدين لأنَّ الامام تعاهد معهم على وضع الحرب .

واليك ما جاء في شأن اهل الكتاب[1] خاصة وغيرهم عامة منها قوله تعالى : « ولَتجدنَّ أقربَهم مودَّةً للذين آمنوا الذين قالوا إناَّ نصارى ، ذلك بأنَّ منهم قِسيسينَ ورهباناً وأنهم لا يستكبرون » — وقوله صلى الله عليهِ وسلم : « مَن آذى ذمياً فأَنا خصمُه ، ومَن كنت خصمه خصمتهُ يوم القيامة » وقوله (ص) : « مَن آذى ذمياً فقد آذاني » وقوله (ص) في شأن القبط وهم نصارى : « اذا فتحتم مصر فاستوصوا باهلها خيراً فإنَّ لكم منهم صهراً وذمّة — ومنها وصية ابي بكر لاسامة بن زيد رضي الله عنهم حينما أَنفذه الى الشام حيث قُتل والده ، وقد جاء فيها :

---

(١) حيثما ورد اهل الكتاب في كتب الشريعة فالمراد بهم النصارى واليهود

« لاتخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا طفلاولا شيخاً كبيراً ولا أمرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرةً مثمرةً ، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيراً الاّ للاكل ، وسوف تمرّون باقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له »

ومنها العهود العمرية وقد قدمنا شيئاً منها في الباب السابق فراجعه

وجاء في كتاب الغاية :

ليس لنا ان نتعرّض لاهل الكتاب فيما يعتقدون حلّه ، وليس لنا ان نحكم عليهم اذا لم يطلبوا منّا المحاكمة على موجب احكامنا

وقال فيها ايضاً :

يحرم إحضار يهودي يوم سبت [1] لقوله صلى الله عليهِ وسلم في أثناء حديث : «وانتم يهود عليكم خاصةً ان لا تعدوا في السبت»

وقال فيها :

اذا تحاكم اهل الذمة الينا وقد قبضوا مايعتقدون جوازه كالربا وثمن الخمر والخنزير فليس لنا فسخ ذلك

وجاء فيها ايضاً :

---

(١) اي الى محل المحاكمة ، ويستثنى من ذلك الضرورة بحيث لا يقصد من احضاره الضرر به تعمداً

سائر عقود ومقاسمات اهل الذمة اذا تقابضوها ليس لنا فسخها كنحو يهودي تزوّج بنت اخيه فليس لنا فسخ النكاح

وقال فيها :

يُقاتل الامام عن اهل الذمة كما يُقاتل عن المسلمين ، ولا يُكلّفون الا طاقتهم ، لانهم بذلوا الجزية على أن يؤَمّنوا في أنفسهم واموالهم وأَهليهم ، لما روى البخاري في الجهاد عن عمر بن الخطاب (رضه) أنّه قال لما طعنه ابو لؤلؤة الطعنة التي مات بها قال : « وأُوصيه اي الخليفة بعدي بذمّة الله وذمة رسوله : أن يُوفي لهم اسيء لأَهل الكتاب ، وان يُقاتل مِن ورائهم ، ولا يُكلّفوا الا طاقتهم »

اقول : وقد ذكر العلماء عليهم الرحمة انه اذا كان للعدوّ حصن وفيه واحد من اهل الذمة غير معروف فافتتحه المسلمون عنوةً اي قهراً ولم يؤَمّنوا من فيهِ لا يحلّ لهم قتلهم بسبب ذلك الذمي الواحد الذى لا يُمكن تعيينه ، وذلك لقيام المانع بطريقة يقينيّة وهو وجود رجل غير مُعيَّن له ما للمسلمين وعليهِ ما عليهم وله في عنقهم عهد وذمة ولو قال رجل منهم انا ذلك الذمي فلا يُؤخذ بقوله لانّ قوله لا يُعتبر في مثل ذلك الوقت الحرج لاحتمال ان يكون قال ذلك خوفاً لتخليص نفسه ، وربما كان الذميُّ غيرَه ، ولذلك يجب الابقاء عليهم اجمعين .

بل صرّح العلماء بما هو ابلغ في التسامح من هذا معنوياً ، وهو انه اذا ماتت ام الولد فاعطاه ابوه ليهودية مثلا لتُرضعه مع ابنها وغاب ابوه وماتت اليهودية واشتبهته الحال في ايهما ولد المسلم ولم يحصل التمييز بوجهٍ ما وقد شبّ الولدان على اليهودية : فابن المسلم مسلم تبعاً وقد ارتدّ ولا يُلزَم احدهما بالاسلام للاشتباه ، فاحدهما مُرتدّ ولا يُلزَم بالاسلام لعدم تعيينه !!

ومما جاء في شأن اهل الذمة ما روي أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رضه) رأى شيخاً نصرانياً يسأل عن باب المسجد فرقّ له عمر رحمةً بهِ وقال مخاطباً اياه : ما انصفناك يا هذا أخذنا منك الجزية فتىً واضعناك شيخاً » ثم فرض له من بيت المال مالاً يتقاضاه طول حياتهِ

هذا وان قصة القبطي مع ابن حاكم مصر عمر بن العاص شهيرة يُضرب بها المثل في عدل عمر رضي الله عنهُ ولا بأس من ايرادها لمناسبتها المقام ، وها كها :

روى بن عبد الحكم عن انس : أنَّ رجلاً (قبطياً) من اهل مصر اتى عمر بن الخطاب فقال: يا امير المؤمنين عائذ بك من الظلم ، قال : عُذْتَ معاذاً ، قال :سابقت ابن عمر بن العاص فسبقتهُ فجعل يضربني بالسوط و يقول : انا ابن الاكرمين · فكتب عمر (رضه)

ثم ارسلهن مخفورات الى غرفة المذاكرة ، وأمر باقفال الباب عليهن الى ان يقرعنه من الداخل دلالةً على توصلهن الى حكم في الدعوى

وقعد القاضي ينتظر !

وطال انتظاره الى ان تملكه الضجر ، ومل المحامون عن الجانين من الصبر ، وكان جسم المتهم المسكين يتنازعه عاملا الخوف والرجاء : فتتولاه حرارة الامل مرةً ، وبرودة اليأس اخرى ، والحضور بين موءمل له بالخلاص ، ومتوقع له الوقوع في قبضة العدل

ولما ضاق ذرع القاضي في تعجيل المحلفات الجميلات وفرغ صبره من انتظارهن أمر بفتح باب غرفة المذاكرة التي اجتمعن فيها ففتحت ، ورأى القاضي حضرات المحكمات يتحاورن في شأن لبسهن ، ويتباحثن في امر الزي (الموده) والقبعات وما شا كل ذلك من المسائل المتعلقة بنفقات الثياب واثمان الحلي ، وقد نسين الدعوى التي طلب اليهن ان يحكم فيها بالكلية !! فغضب القاضي لضياع الوقت ، ثم قهقه ضاحكاً من تلك المعقول ، ولام نفسه كثيراً لانه خالف المنقول في انتخاب المحكمين والمعقول » اهـ

ومن تأمل في هذه الواقعة يحكم ان لم يكن من اهل التعصب بأن هذا الجنس اللطيف لا يصلح الا لادارة المنزل وتربية الاطفال ، وهي الوظيفة التي خلقت المرأة لاجلها لا غير — هذا وان كثيراً

من عاقلات النساء الاوربية قامت تُداعي بان هذه الحرية التي مُنحت للنساء خرجت بها عما خُلقت لاجله . كما سنذكر ذلك فيما بعد

قال (آرثرشوپنهَور) فيلسوف المانيا الشهير في كتابه «كلمة عن النساء» الذي عرَّبه حسن افندي رياض ما نصه :

« يُسمون المرأة في اوروبا بالسيدة ويُحلّونها محلاً لا يقبله العقل السليم ، على انها وهي الجنس الوضيع عند القدماء لم تُخلق لتكون محل الاعتبار وموضع الاحترام ، ولا لترفع رأسها فوق الرجل ، ولا ليكون لها من الحقوق ما له ، وكفانا ما اصبحنا فيه مما لا يحتاج لاثبات دليل على سوء نتيجة تعظيمها واحترامها .

انَّ النفوس لَتتمنى ان ترجع اوروبا في هذه الطبقة الثانية من الجنس البشري الى مركزها الطبيعي ، وأن تُمحى السيدة التي اضحكت اهل آسيا باجمعها ، ولو علم بها قُدماء اليونان والرومان لجعلوها موضوع سخريَّتهم ايضاً ، ويكون هذا الاصلاح خطوة حقيقية في سبيل تنظيم احوالنا السياسية والاجتماعية ، وها هي اصول قانون (ساليك) واضحة كالشمس لا تحتمل نقداً

انَّ ما نسميه في العرف بالسيدة لفئةٍ يجب القضاء عليها حتى لا يبقى في هذا العالم غير نساء للمنازل عارفات بالاشغال المنزليـة ، وفتيات تستعدُّ لذلك : يعوَّدْنَ العمل ، ويُطبعنَ على الخضوع

الى عمرو: يأمره بالقدوم ويقدم ابنه معه ، فقدم، فقال عمر : اين المصري ؟ خذ السوط فاضرب ، فجعل يضرب بالسوط وعمر يقول: اضرب ابن الاكرمين » قال انس فضرب ، فوالله لقد ضربه ونحن نحب ضربه ، فما أقلع عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه . ثم قال (عمر) للمصري : ضع السوط على صلعة عمرو ، فقال يا أمير المؤمنين :انما ابنه الذى ضربني وقد استقدت منه، فقال عمر لعمرو : مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارًا » قال : يا أمير المؤمنين لم اعلم ولم يأتني »

ولو أردنا أن نقابل امثال هذه الحادثة بما يفعله الانكليز في مصر من اضطهاد الوطنيين واحتقارهم واعتبار اقل جندي انكليزي ارقى وارفع من اعظم سري وعالم : نجد فرقًا بعيدًا ومنأى شاسعًا ، وسنورد طرفًا من ذلك في باب « القصاص في الاسلام »

ومن نظر في التاريخ ورأى ان المسلمين كانوا يهتمون بتخليص اسرى اهل ذمتهم كما يهتمون بتخليص اسراهم ويجعلون استخلاصهم من ايدي العدو شرطًا: يعلم مبلغ عناية المسلمين بمن كانوا تحت رعايتهم وحفظهم من غير المسلمين، لانهم يعتقدون انهم واهل الذمة سواسية فى جميع الحقوق

على انّ حماية النصارى واليهود وكل من كان تحت رعاية

الدول الاسلامية منذ انتشرت اعلام الاسلام في الآفاق معروف مشهور ، فقد كان الخلفاء المسلمون ولم يزالوا يبذلون الجهد لدفع الاذى عن اهل ذمتهم وعهدهم ومن دخل في امانهم، ولحياطتهم بما يرفّه معيشتهم ويحفظ كيان دينهم وعوائدهم ، ويعاملونهم بالحسنى والمساواة بالمسلمين — بل ان من نظر الى ما كانت عليه العلماء من غير المسلمين من التعظيم والتبجيل والاكرام ، وكيف كانت لهم الكلمة النافذة في الدولة ، وكيف قبضوا على نواصي المراتب العالية، والرتب السامية، وقيادة الجيوش: يعلم مبلغ تسامح المسلمين ورعايتهم من كان تحت حفظهم وذمتهم .

جاء في كتب التاريخ : أنه صبت الفتن على بغداد فقضت بتخريبها فاهتمّ عضد الدولة بعمارتها سنة ٣٦٩ فاصدر الامر في بناء المساجد والاسواق وإطلاق الاموال للفقراء والعلماء من كل دين ونحلة ، وكان له وزير نصراني اسمه (نصر بن هرون) فأمره ببناء الكنائس والاديرة واعطاء الاموال للفقراء من اهل دينه — من نظر الى مثل هذا الفعل بعين الانصاف يعلم مقدار تساهل الخلفاء المسلمين وتسامحهم وحبهم ترقية حال من لاذ بذمتهم

وانصع دليل على سماحة الاسلام والدول الاسلامية هو ما تفعله ﴿ الدولة العلية العثمانية ﴾ مع رعاياها من اهل ذمتها بل ومن

غيرهم ممن يقصدون الى بلادها ، وكثير منهم طردتهم دولهم كالجزويت واليهود فوجدوا عندها منزلاً رحباً ومُستناخاسهلاً وعيشة رافهة ، وذلك هو عين ماتأمر بهِ الشريعة الاسلامية ، ويحضُّ عليهِ القرآن الكريم وكلام الرسول صلى الله عليهِ وسلم . غير أَنَّ اللورد كرومر يتعامى عن كل ذلك و يقول : إِنَّ القرآن يأْمر بما هو منافٍ للمدنية ويحضُّ على كره الاغيار ، و يربّي في نفوس مُتَّبعيه عاطفة الكره والانتقام الخ .... فلا حول ولا قوة الا بالله .



القصاص في الاسلام

ومما ذكره اللورد في موضوع تعصب المسلم قوله :

« إنّ المسلم منذ قرون مابرح يؤمر بالانتقام لنفسه من أعدائه وأن يضرب مَن يضربه عيناً بعين وسناً بسنّ ، وعليهِ ترى أنّ الاسلام يختلف مع النصرانية في أنه يغرس في العقول أنّ الانتقام والكره يجبُ أن يكونا أساساً للمعاملات بين الرجل والآخر بدلاً من المحبة والاحسان »

ويكفي في ردّ بعض هذا الكلام ماقدّمناه في الابواب السابقة من الآيات والاحاديث ، وما علّقناه على ذلك من الاقوال ، فليرجع اليهِ مَن أراد . ونحن نردّ الآن انتقاده على الاسلام في الاقتصاص فنقول :

الاسلام أتى لحفظ الامن العامّ بالحدود والقصاص ليلزم كل انسان حدّه فلا يتجاوزه ، اذ من المعلوم أنّ الناس طبقات: فهم يتفاوتون في الاخلاق والآداب والطباع ، كما يتفاوتون في المراتب والمنازل والغنى والفقر والجهل والعلم ، وهذه الحياة حياة جهاد ومقاومة للتأثيرات الخارجيّة التي تطرأ على جسم المجتمع

الانساني ، وإنَّ هذه التأثيرات والعوارض إن لم يُوجد لها صادم يُخفّف وطأتها تَزْدَدْ يوماً فيوماً الى ان لم يبقَ في قوس الرجاء منزع . ولما كانت بعض النفوس تنزع الى ما حرَّمه عليها الشرع والعقل تبعاً لأهوائها واميالها احتاجت الى رداع يردعها عن ذلك الميل وتلك الجناية التي تضرُّ بها و بمحيطها ، فشرع الله لها احكاماً وقصاصاتٍ تنال مَن جاوز الحد ، واستباح حمى المحارم ، فمن نالته القصاصات اعتبر بهِ غيره ، واُعتبر هو ايضاً فيُقلع عما تُوحيه اليهِ نفسه الخبيثة « إنَّ النفس لأمَّارةٌ بالسوء » ولو تُرك كلُّ انسان وهواه يفعل ما يشاء : يضرب هذا ويقتل ذاك ويسرق مال الاخر ، الى غير ذلك من الموبقات ، ولم يكن له من وازع يكفُّه ، لاختلط الحابل بالنابل وضاعت الحقوق ، واستبدَّ القويُّ بالضعيف ، فيهلك العالم ويفسد الكون — لذلك اقتضت حكمة الله تعالى ورحمته بعباده أن شرع لهم من الدين ما شرعه لمن قبلهم من الامم ، فآية القصاص التي وردت في القرآن كافلة اذا عُمل بمقتضاها لحفظ الحقوق وحجب الدماء ووقوف كل انسان عند حده — فهل لجناب اللورد كرومر أن يتعامى عن حكمتها وموافقتها للمصالح العامة ؟ — السنُّ بالسنّ ، فمتى عرف المرء ذلك امتنع أن يضرب احداً على خده كيلا يكون من جراء ذلك قلع سنّ المضروب فيُقلع سنُّ الضارب ايضاً ،

والعين بالعين كذلك ، والانف بالانف كذلك .... ، النفس بالنفس، فمن عرف أنه إن قتل يُقتل أمتنع عن القتل ، وبذلك يكون القتل أنفى للقتل ، ويكون القصاص حياة « ولكم في القصاص حياةٌ يا أولي الالباب »

عجباً لقوم يرون القذى في اعين غيرهم ولا يرون العمد في عيونهم — كأنَّ ما تفعله الدولة الانكليزية وسائر دول اور بابحق وبغير حق من التشهير والفتك وسائر ضروب التنكيل هو مُغتفر ، وما أمر بهِ الاسلام من العدل في الاقتصاص من الجناة ليرتدعوا عن فعلتهم المنكرة ويعتبر غيرهم فلا تميل نفسه الى مثل عملهم ، كل ذلك يعتبره جناب اللورد خطأً من الاسلام ، فلا حول ولا قوة الا بالله .

لو يعلم اللورد كرومر أنَّ آية القصاص ليست شريعتَنا أَولاً وبالذات ، بل هي اخبار عما شرعه الله لبني اسرائيل من قبل ثم صارت شرعاً لنا ، لان شرع مَنْ قبلنا شرع لنا إن لم يُنصّ على نسخه ، بل وهي شريعة النصارى ايضاً لانهم مأمورون ومُلزَمون بالعمل باحكام التوراة الاَّ ما نُسخ منها وآية القصاص مُحكمة لم ينسخها الانجيل

على أن امر القصاص ليس راجعاً لافراد الامة بل الى اولياء الامور ، فالمجنيُّ عليهِ يرفع امره الى الحاكم وهو يقتصُّ من الجاني

بمثل جنايته ، ولا يجوز له أن يجاوز الحدّ . ولا بدَّ في القصاص من المساواة ، فلا تُقطع يدٌ صحيحة بيدٍ شلاء ، مثلاً ، ولا عينٌ مبصرة بعين عمياء ، وهلمَّ جرًّا لعدم المساواة ، بل يُكتفى من ذلك بدفع مالٍ للمجنيّ عليهِ عوضًا عن مصيبته ، ولو عفا ربّ القصاص أو قبل بمالٍ سقط الحق عن الجاني و بطل القصاص ، قال تعالى : « وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنَّ الله لا يحبُّ الظالمين » فأول الآية يُعلّم الحاكم كيفيّة القصاص والحكم بين الناس ، ووسطها يعلّم المجنيّ عليهِ أنهُ إن عفا عن الجاني واصلح ما بينهما من الاحقاد بالمنّ عليهِ بالعفو فله الثواب الجزيل عند ربه تلقاء عفوه ، وختامها يُرشد الامة عموماً والحكام خصوصاً الى أنَّ الله يكره الظلم في الحكم والتعدّي على الأغيار .

امثال اللورد يعيبون على الاسلام قسوته في الحدود والعقوبات كحدّ الزنا وشرب الخمر وقُطَّاع الطريق ، ويئنّون من جلد الزاني او رجمه وجلد شارب الخمر وصلب قاطع الطريق في بعض الصور ، نعم إنَّ مثل هذه الاحكام موجود في الشريعة الاسلامية ، ولكنها لم تتفرّد بهذه الحدود : فرجم الزاني موجود في شريعة التوراة ومعمول بهِ عندهم — على أنَّ من تأمل فيما تجرّ اليه امثال هذه الموبقات من زعزعة اساس الاخلاق الفاضلة واركان العمران لم يعترض على الشريعة

الاسلامية بعملها بهذه الحدود — لو نظرنا الى ما ينتجه الزنا من الشرور والمفاسد التي تجرّ على الهيئة الاجتماعية من الويلات والامراض والفتن والخراب ، فضلاً عن صدع بيضة الشرف وتكثير اولاد الزنا الذين يُنسبون الى غير ابيهم الحقيقي إن كانت أُمهم متزوّجة ، أو يعيشون لا عائل لهم ان كانت عزباء ، لو نظرنا الى ما تقدم لحكمنا بأنَّ هذا الحدّ موافق للمصالح ونظام العمران والمدنيــة الصحيحة — لو تأمل العاقل فيما تجرّه الخمرة على شاربها من الاضرار المادية والمعنوية والامراض والموبقات لقال إنَّ حدّ الشرب الذي وضعتهُ الشريعة الاسلامية مناسب وموافق ليرتدع امثال هؤلاء الجانين على انفسهم بل وعلى الهيئة الاجتماعية جناياتٍ لا تُغفر الا بإقفال تلك الحانات وعقوبة الشاربين ·

يقول اللورد : ان الشريعة المسيحية لم تُعاقب الزانية بالقتل ، فانهم لمَّا اتوا السيد المسيح بالزانية وأَرادوا رجمها ، قال صلوات الله عليهِ : ليرجمها مَن لم يفعل خطيئته · ويقصد اللورد بذلك المقابلة رأفة المسيحية ورحمتها وصلابة الاسلام وشدَّته ، وغفل عن أَنَّ الحدود انما وُضعت لارهاب مَن اراد أَن يتعدّى حدود الله التي سنَّها ليكون الانسان سعيداً في الحياتين — على أنَّ امر ثبوت الزنا في الاسلام ليس بالامر الهيّن ، فانَّ له شروطاً تكاد تجعله مستحيل

الوقوع ، فلهذا لم يُؤثر أنه ثبت وقوع الحدّ على الزاني الاّ نادراً ، بل لا يُتصوَّر وقوعه الا فيما اذا شهد شاهدٌ على نفسهِ بذلك اربع شهادات ، ولو شهد انسان على نفسه بالزنا فيُقام الحدّ عليهِ فقط دون المرأة التي ادَّعى انه زنى بها إلاّ إن شهدت هي كذلك . او فيما اذا شهد اربعة شهود عدلٍ أنهم رأوا منهما الفعل حقيقة كما يُرى الميل في المكحلة ، ولا يكفي أنهم رأوه فوقها او قاعداً منها مقعد الفاعل او نحو ذلك ، فلو شهدوا عليها بالزنا واختلفت الشهادة ، حتى لو شهد ثلاثة منهم أنهم رأوا الفعل حقيقة وشهد الرابع بأنه رآه فوقها ولم يَرَه يفعل سقط الحق عن المدَّعى عليهما وجلد الحاكم الشهود جزاءً لهم على افترائهم ، لانَّ امر الاعراض امرٌ مهمٌّ جدًّا ، — وما هذا التشديد فى حدّ الزنا من كونه لا يثبت الاَّ باحد شيئين : اماَّ بالاقرار واما باربعة شهود عدل على شرط الشهادة ، الاَّ لتخفيف امر ثبوته — وقد ورد كثير من الآيات والاحاديث الرادعة عن اشاعة الفاحشة ، منها قوله تعالى : « إنَّ الذين يُحبون ان تشيعَ الفاحشةُ فى الذين آمنوا لهم عذابٌ اليمٌ في الدنيا والآخرة ، والله يعلم مالا تعلمون » وروى البخاري : قال : اتى رجلٌ رسولَ الله صلى الله عليهِ وسلم وهو في المسجد فناداه : يارسول الله : إني زنيتُ فأعرض عنهُ اي لكراهة سماع ذلك وستراً

له ، فلما شهد على نفسهِ بالزنا اربعَ مرّات قال رسول الله : أبك جنون ؟ قال : لا ، قال صلى الله عليهِ وسلم : اذهبوا به فارجموه .
وروى ايضاً أنّ النبي صلى الله عليه وسلم أعرض عنهُ ثلاثَ مرات وهو يقول له : لعلّك لمست ، لعلّك قبّلت ، لعلّك فاخذت ، وهو يُقرّ بالزنا ، ثم قال له في الرابعة : أ . . . . . ؟ قال : نعم ، فسأله : هل أُحصنت ؟ قال : نعم ، فأمر برجمه .

قال القسطلاني : الستر على عيوب الناس مطلوب ، فلا ينبغي أن يُدخَل على جماعة يشربون الخمر في موضع ولم يظهر منهم امور فساد ، لِما روى ابو داود والنسائي عن دجين ابي الهشيم كاتب عقبة ابن عامر : قال : قلتُ لعقبة : إنّ لنا جيراناً يشربون الخمر وانا داعٍ عليهم الشرطة ليأخذوهم ، قال : لا تفعل وعِظهم وهدّدهم ، قال : اني نهيتهم فلم ينتهوا وانا داعٍ لهم الشرطة ليأخذوهم ، قال عتبة : ويحك لا تفعل ، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مَن ستر عورةً فكأنما أستحيا موؤدةً في قبرها . والاحاديث كثيرة بهذا المعنى فلا نُطيل بذكرها » اه ما اورده القسطلاني

فانت ترى أنّ الحدود التي شرعها الاسلام وان كانت قاسية فهي للارهاب اكثر منها لاقامتها ، لأنها لا تقام الاّ متى ثبتت ثبوتاً جلياً ، وذلك فيه من العسر والتضيق ما جعلها لا تثبت الاّ

في القليل النادر — ومع ذلك فالحاكم ينبغي أن يكون من طرف المتّهم بامثال هذه الجرائر ، بأن يعظ المدّعي والشهود ويخوّفهم من الله ويذكّرهم بأنّ عذاب الآخرة اشدّ إن كانت شهادتهم على غير وجهها ، فقد روى البخاري أنّ النبيّ صلى الله عليهِ وسلم قال : « انما انا بشر وانكم تختصمون اليّ ،ولعلّ بعضكم أن يكون الحنَ بحجتهِ (اي ابلغ من الاثبات بحجته من بعض اي وهو كاذب) فأقضي له نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق اخيه فلا يأخذه فانما أُقطع له قطعة من النار »

ومما أنتقده كرومر من حدود القصاص واستدلّ به على عدم مرونة الدين الاسلامي تلك الفتوى التي افتى بها المرحوم الشيخ العباسي مفتي الديار المصرية سنة ١٨٩٠ م ، وذلك أنه كان عضواً في مجلس شورى القوانين فجاءه مشروع يختص بعصابات اللصوص وقطّاع الطريق يُسأل فيه عن حكم الله في هؤلاء فذكر الآية الشريفة : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً أن يُقتّلوا او يُصلّبوا او تُقطعَ ايديهم وارجلهم من خلاف او يُنفَوا من الارض ، ذلك لهم خزيٌ في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم . إلاّ الذين تابوا من قبلِ أن تقدِروا عليهم فاعلموا أنّ اللهَ غفورٌ رحيم »

ولو رفع اللورد حجاب التعصب او الجهل عن قلبهِ لم يحكم على الدين الاسلامي بعدم المرونة بسبب هذا الحكم ، وذلك أنَّ الشرع الشريف كما قدَّمنا جاء لحفظ الامن العام ومجازاة مَن يعتدي على الارواح والاموال او يجاوز الحدود التي تُخلّ براحة العموم ، ففرض لكل سيئة يرجع ضررها الى الهيئة الاجتماعية قصاصاً يختلف باختلافها قوةً وضعفاً ، وقد أَمر بالعدل في كل تلك القصاصات ، وفوّض بعض القصاص الى اولي الامر في بعض الجنايات التي لا يمكن ضبطها كالشتائم والجروح مثلاً . وأما الذنب الذي يرجع ضرره على الفرد الجاني فقط فقد حذَّره منه تحذيراً كلياً ولم يجعل للحاكم سيطرة عليهِ الاّ إن اُشتهر امره او كان يفعله على مرآى من الناس ، فجعل الشرع للهيئة الحاكمة حينئذ قصاصاً تُقيمه عليهِ حتى لا يتمادى في طغيانهِ فيكون ذلك سبباً لزيادة الخطايا المدنية بسبب تعدّي تلك الخطيئة الى غيره فانّ مَن كان لا يبالي بالزنا مثلاً ، ويقول انا افعل كذا وكذا ، وانّ مَن يشرب الخمرة على مرآى الناس او يشربها سرًّا ثم يخرج وهو سكران فربما يستهوي بذلك غيره فيفعل مثل فعله ، فيتّسع الخرق ، ويتفاقم الامر ، فوضعت الشريعة حدوداً مخصوصة ، وهذه الحدود وإن لم تستأصل هذه الجنايات فهي تُقلّلها بلا شك ، وتجعل ضررها قاصراً على الجاني

— فوضع امثال هذه الحدود على مثل هذه الخطايا الشخصية لا لأنها خطيئات فقط ، بل لانها جُوهر بها فتعدّى ضررها الاخلاقي والمادي على غير مجترحها وجانيها ، فأصبحت جناياتٍ عامة ضارة بالمجتمع — الا ترى فيما قدمنا كيف ان الرسول (ص) نهى عن فضيحة المستتر بمعصيته الشخصية؟ — وقد ورد ايضاً في بعض الاحاديث نهيٌ من كان مُبتلياً بمعصية من اظهارها او التحدّث بها ، وامرُه بالاستتار عن اعين الناس كيلا يصيبه الحدّ ، ولئلا يراه بعضهم فيروق له ان يفعل مثل فعلته لانّ النفس امارة بالسوء

قلنا : الحدود وُضعت لمن يجني جناية تضرّ بالمجتمع ، سواء كانت شخصية ثم انقلبت عمومية ، او كانت عمومية لاول فعلها ، فجعل الشرع قصاصاً للسارق وهو قطع اليد ، ثم فرّق بينه وبين المختلس والمنتهب والخائن ، فلم يضع لهم قصاصاً سوى الذي يراه الحاكم ، وقد قال الفقهاء ما خلاصته : السرقة اخذ المال خفية ، وشرعاً اخذه خفية ظلماً من حرز مثله ، فيخرج اخذه جهرةً بنهب او اختلاس واخذه مال غيره يظنه مال نفسه ويخرج ايضاً الخائن الجاحد لنحو وديعة . والنهب اخذه المال جهرة اعتماداً على القوة . والاختلاس اخذه جهرة اعتماداً على الهرب والفرار . والفرق بينهم وبين السارق انّ السارق يأخذ المال خفية ولا يتأتّى منعه ، وكلٌّ من المختلس

والمنتهب يأخذ المال جهرة معاينة فيتأتى منعه ، والخائن يعطيه المالك المال بنفسه فربما يشهد عليه فيتأتى تحصيل المال منه بالحاكم إن خان بعد ذلك ، فان لم يشهد عليه فهو المقصر . هذا وان للقطع شروطاً فلا تقطع يد مطلق سارق ، ومن اراد التفصيل فليرجع الى كتب الفقه .

ومن الجنايات الكبرى التي تضر بالمجتمع ما يفعله قطاع الطريق من النهب وقتل الانفس البريئة ، الى غير ذلك من الفظائع . وقد وضعت الشريعة العادلة لذلك قصاصات تختلف باختلاف اهميتها ، والحاكم مخير باقامة احدها وهو يفعل ما يناسب الزمان والمحيط . ولما كان شر هؤلاء (قطاع الطريق) مستطيرا لا يرحمون صغيرا ولا يرأفون بشاب ولا امرأة : سماهم القرآن محاربين لله وللرسول اشارةً الى فظاعة عملهم وقبيح صنيعهم ، فقال: « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً الخ » وقد ذكروا ان هذه الآية نزلت في قطاع الطريق وهم نفر من عكل وعرينة قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتووا المدينة ، فأمرهم الرسول ان يأتوا ابل الصدقة فيشربوا من ابوالها والبانها فقتلوا راعيها ومثلوا به وسملوا عينيه ، فأُتي بهم فسملت عيونهم وقطعت ايديهم وارجلهم جزاءً لهم على هذا الفعل المنكر

« أَن يُقتَّلوا » اي جزاء من تقدم ذكرهم ان يُقتلوا اي ان قتلوا النفس فقط « او يُصلَّبوا » بعد القتل إن قتلوا وأَخذوا المال « او تُقطع ايديهم وارجلهم من خلاف » اذا اخذوا الاموال ولم يقتلوا النفس التي حرَّم الله « او يُنفَوا من الارض » اذا اخافوا السبيل وأَرهبوا المارّين ولم يقتلوا ولم يأْخذوا الاموال · وقال ابو حنيفة (رضه) : اذا قَتل قُتل ، واذا أَخذ المال ولم يَقتل قُطعت يده ورجله من خلاف ، واذا أَخذ المال وقَتل فالسلطان مُخيَّر فيهِ إن شاء قطع يده ورجله وان شاء لم يقطع وقتله وصلبه · وقال الشافعي (رضه) : اذا اخذ المال قُطعت يده اليمنى وحُسمت وخُلّي لانّ هذه الجناية زادت على السرقة بالحرابة ، واذا قَتل قُتل ، واذا اخذ المال وقَتل قُتل وصُلب · ونحوه قول احمد رضي الله عنهم اجمعين ·

ثم انّ الحكمة من الصلب ان يكون ذلك زجرًا للغير عن الاقدام على مثل هذه المعصية الكبرى ، ولذلك كان الاولى أَن يكون الصلب في مَمَرّ الناس ليعتبر مَن يرى — والنفي من الارض عند الشافعي يكون بنفيهِ من بلدٍ الى بلدٍ ولا يزال يُطلب وهو هارب فَرَقًا الى ان يتوب و يرجع · وعند ابي حنيفة يكون بالحبس والسجن ، قال الآلوسي : والعرب تستعمل النفي بذلك المعنى لان الشخص

يُفارق بيته وأهله ، وقد قال بعض المسجونين :

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها فلسنا من الاموات فيها ولا الاحيا
اذا جاءنا السجان يوماً لحاجة عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا

ثم اردف الله تعالى هذا القصاص بقوله : « ذلك لهم خزيٌ في الدنيا » اي ذلك القصاص ذلّ وفضيحة في الحياة الاولى « ولهم في الآخرة عذاب عظيم » لعظم هذه الجناية التي هي بمنزلة محاربة الله ورسوله . اقول والله اعلم : انّ عذاب الآخرة هو لمن لم يُقَمْ عليهِ الحدّ في الدنيا والا فالله اعدلُ من أن يجمع عليهِ الخزيين ، وللمفسرين في ذلك اقوال فارجع اليها ان شئت ، وهذا هو ما ظهر لي في توجيه عذاب الآخرة ، ويدل عليهِ قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري في صحيحه من حديث : « فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن اصاب من ذلك شيئاً فعُوقب بهِ في الدنيا فهو كفارةٌ له » ثم قال تعالى تتمةً لما سبق : « الاَّ الذين تابوا من قبلِ ان تقدِروا عليهم » بان فاؤوا الى الحق ورجعوا عن قطع السبيل « فاعلموا انَّ الله غفورٌ رحيم » فهو يغفر بالتوبة حقوقه ، ولا يسقط بها حق العباد ، ولذلك عبّر بالمغفرة دون النهي عن اقامة الحد عليهم إن قتلوا او سلبوا الاموال ، فانَّ ذلك راجع لوليّ الحدّ وصاحب الحق ان شاء عفا فيسقط الحد ، وان شاء طالب

بذلك فيقيم الحاكم الحدّ على الجاني — واعلم انه لما كانت المحاربة والفساد في الارض يختلفان قوة وضعفاً شُرعت لكل نوع من انواعها عقوبةٌ معيّنة كما سلف ، فعلى هذا تكون او للتقسيم والتنويع وهذا ما نراه الحق . ولبعض المفسرين قول آخر وهو أنّ أَو في الآية للتخيير ، فالحاكم مخير في هذه العقوبات بالنظر الى الاشخاص والزمان ، لانّ العقوبات للانزجار واصلاح الخلق ، وربما يتفاوت الناس في الانزجار فوكل ذلك الى رأي الحاكم ، واختار هذا الرأي صاحب المؤيد في ردوده على كرومر . والذي مِلنا اليهِ هو الموافق للنصوص لانّ الله يقول : « وجزاء سيئة سيئةٌ مثلها » وليس في التخيير في الاغلظ والاهون كبير معنى كما ذكر ذلك الآلوسي . على أن الحاكم له أن يعمل بالتخيير ان رأى المصلحة فيهِ ، لانّ حكم الله يدور مع المصالح العامة طالما لا يُصادم الرأي مفاهيم القرآن والحديث الصحيح وقواعد اللغة . — هذا حكم الله فيمن يسلب الراحة ويُخيف الناس ويعتدي على اموالهم ودمائهم ، فهل فيه من الاحكام ما يُناقض العمران ، او يدلّ على انه مُنافٍ للرأفة والمرونة ؟ — ربما يُقال : إنّ الصلب حالة تقشعرُّ منهُ الابدان ، فنقول انها مثل حالة الشنق وقطع الرأس ، لاناً قدّمنا ان الصلب يكون بعد القتل ، وفيه نوع من الرهبة لمن يفعل مثل هذا المنكر ، لان مَن يقتل النـاس

ويسلب اموالهم ويسعى في الارض فساداً جديرٌ بهِ أنْ يُقتل جزاء أغتياله النفوس ، ثم يُصلب بعد قتله مقابلةً لفساده ونهبه ، فيرتدع من يراد من الاشقياء او يسمع بهِ عن مثل فعله المخلّ بالحضارة والعمران والمدنية .

على أنّ ما هو مأثور عن فعل اللورد كروم وفظائعه وفظائع غيره من قومه وسائر الاوربيين اعظم وادهى وأمرّ :

أَنسي جناب اللورد حادثة دنشواي وما أمرُها ببعيد حيث سُفكت الدماء البريئة وجلد الرجال على غير ذنب جنوه سوى انهم دافعوا عن حقوقهم ولم يسفكوا دماً بريئاً غيرَ أَنهم ضربوا رجلاً انكليزياً ثم صادف اَن أُصيب بالشمس فمات ؟ — أنسي اللورد يوم اَحرق ثمانيةً من اللصوص احياء في (البلينا) بدعوى اَنهم عصابة لصوص وكان هو اعظم حامٍ لبعض الفاعلين ؟ في حين اَن الشريعة الاسلامية نهت عن الحرق مطلقاً واَوعدت من يفعل ذلك بعذاب عظيم — اَنسيَ فعل الانكليز بالدراويش ؟ — اَنسيَ فعلهم بالترنسفال ؟ — اَنسي فعل الفرنسيس في الجزائر والدار البيضاء ... ؟ — انسي انسي ؟ الى آخر مالو اردت احصاءه لسوّدت كثيراً من الصفحات ، كما سُوِّد التاريخ والكون بفظائع أعمالهم .

ذكرت جريدة « العدل » الانكليزية التي تصدر عن

لندرا ما نصه :

« قد أمسى الفلاح في عهد كرومر في حالة فقر مدقع ، وقتلوه قتلاً ، لانه تجرّأ على الدفاع عن بيته وعائلته ضدّ اعتداء الضباط الانكليز الذين سلبوه طعامه واطلقوا النار على زوجته ، ثم قتلوه حباً بالصيد والقنص » اه

﴿ وخلاصة الكلام ﴾ أن ما شرعه الدين الاسلامي من القصاصات والحدود هو عين الحكمة ، وهو النظام الوحيد الذي يجعل الناس في هناء ورفاء آمنين من مدّ يد السوء اليهم ، وهو مرن موافق للمصالح العامة والخاصّة ، وفيما قدّمناه كفاية لمن اراد الحقيقة ، وكان من ذوي العقول السليمة .



الرقّ في الاسلام

الرقّ قديم ، وُجد منذ أُضرمت نيران الحروب بين الامم ، فابوه الضغائن او حبّ الأَثرة ، وأمه الهيجاء والحرب ، ولم تخلُ أُمة من الامم من الاسترقاق ، وقد تمادى الناس في ذلك الامر ، حتى إنهم كانوا يختطفون الناس للاتجار بها ، وكانت معاملة الرقيق تختلف باختلاف الامة المسترقّة : فمن رحيمة وهي الاقلّ حتى لا تكاد تُذكر ، ومن قاسية جائرة وهي الاكثر كما دلّ على ذلك التاريخ. وقد بلغ الرقيق من الذل والاستبداد بهِ ما يحمرّ له وجه الرحمة والانسانية ، وتنفطر له القلوب.

فلما جاء الاسلام ورأى حال الارقاء وما هم فيه من الاضطهاد والهوان رقّ لحالتهم ورثى لضعفهم ، ولم تكن السياسة في ذلك الوقت تقضي بمنعه بتاتًا ، غير أَنه حوّر تلك المسأَلة وعدّل نظامها ثم قضى بأنّ الرقّ لا يجوز الا في حرب شرعية مع قوم صارحوا المسلمين بالعداوة والاذى ، وبشرط ان يضرب الامام الرقّ عليهم ، فإن رأَى المصلحة في عدم استرقاقهم فله ذلك ، فسدَّ بهذا القانون كثيرًا من ابواب الاسترقاق التي كانت مأْلوفة عند العرب وغيرهم

قبل الاسلام ·

فالدين الاسلامي اجاز الرقّ كسائر الاديان ، ولكنه فاقها باقفال اكثر ابوابه ، وبما سنّه من النظامات في معاملة الرقيق ، فكأنّه بفعله هذا ينادي بأنّ عادة الاسترقاق من بقايا الهمجية ، فلذا أمر باعتاق الارقاء وشدّد في هذا الامر ورغّب فيه ترغيباً ، حتى انّ اكثر اصحابه أعتقوا من الارقاء ما لا يُحصى ، وكان هو أول مَن بدأهم بذلك فاعتق زيد بن حارثة ثم زوّجه بنت عمته زينب بنت جحش التي صارت بعد أن طلّقها زيد زوجاً للرسول صلى الله عليهِ وسلم لإبطال عادةِ التبني السيئة التي كانت مألوفة عند العرب· ثم لم يكتفِ بذلك بل جعل عتقَ الارقاء مُكفّراً للكثير من الذنوب والأَيمان : فمن حلف يميناً وكان غنياً وأراد أن يتحلّل منها يُعتق رقيقاً وبذلك يتنصّل من يمينه ، قال تعالى في كتابه الكريم : « لا يُواخذُكمُ اللهُ باللغو في أيمانكم ، ولكن يواخذُكم بما عقّدتمُ الأيمان ، فكفّارته إطعامُ عشرةِ مساكينَ من أوسط ما تُطعمون أهليكم أو كسوتُهم او تحرير رقبةٍ الخ » أي إعتاق رقيق ليصير حرّاً — ومَن قتل مؤمناً او غيرَ مسلم ذمياً كان او مُعاهداً اي من قوم بيننا وبينهم ميثاق وعهد ، وكان قتله المذكورين خطأً لا عمداً فهذا لا يُقتل ، بل أمره الله بان يُعتق رقيقاً مع دفع الدية لاهل

المقتول ، ويكون ذلك كفّارة له ، قال تعالى : « ومَن قَتل مُؤمناً خطأً فتحريرُ رقبةٍ مُؤمنةٍ وديةٌ مُسلَّمةٌ الى اهله إلاّ أن يصَّدقوا فان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فَديةٌ مُسلَّمةٌ الى اهله وتحرير رقبةٍ مُؤمنة الخ » — وجعلت الشريعة لمن يُظاهر من امرأته تحليلاً للرجوع اليها ، وذلك انها أمرته بعتق رقيق ان وجد لذلك سبيلاً وبذلك تحلّ له قال تعالى : « والّذين يُظاهرون من نسائهم ثمّ يعودون لما قالوا فتحريرُ رقبةٍ مُؤمنةٍ من قبل أن يتماسا الخ » — فانتَ ترى فيما تقدّم أنّ الشريعة الاسلامية تحثُّ على إعتاق الرقيق وتحضّ على تحريره لينال الحريّة التي خلقه الله لاجلها .

ثم إنّ الشريعة لم تكتفِ بذلك بل أمرت الاغنياء بأن يشتروا الارقاء ويُعتقوهم ، ثم تجاوزتْ ذلك وخصّصتْ لهم سهماً من مال الصدقة (الزكاة) يُصرف في سبيل تحريرهم ، قال الله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » الى قوله تعالى : « وفي الرقاب » اي في فكّ قيود الرقّ عن رقاب الارقاء . وقال ايضاً : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفة قلوبُهم وفي الرقابِ والغارمينَ وفي سبيلِ الله وابن السبيلِ ، فريضةً من الله ، والله عليم حكيم » قدمنا معنى الرقاب ، وأمّا الغارمون فهم المديونون الذين ليس لهم مالٌ يكفي لوفاء ما عليهم من الدين فلهم ايضاً نصيب

من الزكاة لدفع دينهم · وأما صرف الصدقة في سبيل الله فيكون في كل مشروع يعود على المصلحة العامة بالخير ودرء المفاسد كصرفها في الاستعداد للجهاد وتشييد الحصون والمعاقل وتعمير الاساطيل وشراء السلاح وغير ذلك مما يدفع عن الامة وعمن هم تحت رعايتها من غير المسلمين بأس العدوّ واغارته واعتداءه ، ويدخل في سبيل الله المدارس وغيرها مما يعود على الامة بالنفع والخيرات ، فكلّ ذلك في سبيل الله وتُصرف فيه الصدقة ، وأما ابن السبيل فالمشهور أنه المسافر المنقطع في الطريق دون الوصول الى بلده ، وهو تفسير لا بأس به ، لكنهُ ليس مخصوصاً بالمسافر ، بل إنّ اللقيط وهو مَن يُوجد من الاولاد مُلقى في الطريق لا يُعرف له نسيب هو ابن سبيل كذلك ، فيُصرف على تربيته وتهذيبه وتعليمه من مال صدقة الزكاة ايضاً ·

قلنا : إنّ الشريعة حثّت ذوي اليسار والغنى على تخليص الرقيق ، قال تعالى : « ليس البرّ أن تُوَلُّوا وجوهَكم قِبَلَ المشرقِ والمغرب ، ولكنّ البرّ مَن آمن بالله واليومِ الآخرِ والملائكة والكتاب والنبيّين ، وآتى المال على حبّه ذوي القربى واليتامى والمساكينَ وابن السبيل والسائلينَ وفي الرقاب الخ » اي بذلَ المالَ في اعانة مَن أراد التخلّص من الرق وفي تخليص الأُسراء والارقاء · ثم حثّ على هذا بما هو ابلغُ في الحض واوقعُ في النفس ،

بأسلوب يستميل النفوس الجامحة ، ويعطف القلوب القاسية ، فقال :
« لقد خلقنا الانسانَ في كَبَد » اي تعبٍ ومشقة ، اشارةً الى أنَّ
الانسان لم يُخلق للراحة بل للاعتمال والكد في أمرَي المعاش والمعاد ،
ثم ندَّد بمن لبسوا رداء الكبرياء واحتقروا مَن دونهم ولم ينظروا اليهم
بعين المرحمة والشفقة فقال : « أيحسَبُ الانسان ان لن يقدِرَ عليه
احد » اي فهو يتكبَّر ويتجبَّر ويُذلُّ الفقير ويستبدُّ بالضعيف
« يقول اهلكتُ مالاً لُبَداً » اي كثيراً من تلبَّد الشيء اذا اجتمع ،
اي هو يقول ذلك لكنه يُرائي ويبخل في الخير ، واذا دُعي لانفاق
شيءٍ في سبيل الانسانية والمصالح العامة يقول : أنفقتُ مالاً لُبَداً ،
وهو لم يُنفق الاَّ على شهواته وملذَّاته ، ويكنز الذهب والفضة
لاجلها ، فهو يُقرّع بذلك الاغنياء والبخلاء والذين يصرفون اموالهم
في وجه غير مشروع ، ويحضّهم على انفاقها في سبيل الخير ، ثم قال
تعالى في حق مَن ذلك شأنه : « أيحسَب ان لم يرَهُ احد » ثم امتنّ
الله عليه بما منحه من نعمة الاعضاء التي يتصرف بالاعمال بسببها
فقال : « ألم نجعل له عينين ولسانًا وشفتين ، وهديناه النجدَين » اي
طريقَي الخير والشر ويُفسّر النجدان ايضاً بالثديَين ، والله تعالى
هدى الانسان للارتضاع منهما لتغذية جسمه ، ومع ان الله منحه
ما تقدم لم يشكر تلك النعم العظيمة ، فلم يسعَ لنفع البائس ونصر

الضعيف ، فاختار طريق الشر على طريق الخير ، فاستحق بذلك السخط والنقمة ، ثم قال تعالى : « فلا اقتحم العقبة » اى فلم يبذل جهده للدخول في الشدائد التي تعود عليهِ وعلى بني جنسه بالخير في الدنيا والاخرة ، واصل معنى العقبة الطريق الوعرة في الجبل وتستعار للشدة ، ثم بين الله ان تلك العقبة والشدة التي امره بتحملها والدخول في مضايقها فلم يفعل : هي فك الرقاب اي اعتاق الارقاء ، واطعام الفقراء والايتام يوم المجاعات ، فقال : « وما ادراك ما العقبة » ثم اجاب بان العقبة هي « فك رقبة » اي فكها من قيد الرق « او اطعامٌ في يومٍ ذي مسبغة يتيماً ذا مقربة او مسكينا ذا متربة » المسغبة الجوع والمتربة الفقر ، ثم ختم ذلك بقوله : « ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة »

رأيت فيما تقدم أن شريعة القرآن أمرت باعتاق الرقيق وحثت عليه حثاً ، وحببت الى الاغنياء شراءه وفكه من اغلال الرق ، ارشاداً الى ان الاسلام دين حرية يكره الاستعباد ويجفو الاسر ، ويميل الى كل ما من شأنه ان يرفع بالجنس البشري الى ذروة الاطلاق وعدم الاستبداد — فسقطت بذلك جناية اللورد كرومر على الدين الاسلامي بشأن الرق ، وانهارت دعواه الباطلة في ان الاسلام اخفق سعياً بصفته نظاماً اجتماعياً باباحته الاسترقاق ، وبطل قوله : إن

مسألة الرق هي ما اوجب فشله امام نظام الاجتماع . ثم أن اللورد ادَّعى ان الديانة المسيحية لم تُوافق على الاسترقاق مطلقاً .....

نقول: ان الاسلام أباح الاسترقاق ولكن جعل له شروطاً ضيقة تجعله لا يقع الا في احوال نادرة، ومع ذلك فقد امر كما قدمنا باعتاق الارقاء فضلاً عما سنَّهُ للمسترَقّين من قوانين الرحمة بهم والشفقة عليهم ومعاملتهم معاملة الاولاد كما سنذكره ان شاء الله تعالى — فهل من شريعة عاملت الرقيق كالشريعة الاسلامية ؟ كلاّ

كان الاسترقاق عند المسيحيين والوثنيين واليهود ليس له نظام ولا قواعد فكانوا يسترقون ويختطفون الناس ويعاملونهم بافظع انواع القسوة والاستعباد ، فلما جاء الاسلام اَصلح حال الارقاء على النظام الذى قدمنا ، كما اصلح كثيراً من امور الاجتماع خصوصاً امر المرأة كما سترى ، في حين ان الشريعة المسيحية لم يرد فيها كلمة واحدة في الامر بتحرير الارقاء ، بل ورد فيها الامر بان يُطيعوا سادتهم مع الخوف والرعب كما يُطيعون المسيح عليه السلام وان يقوموا بخدمتهم احسن قيام تمجيداً لما جاء به من التعاليم، قال ذلك بولس في رسائله ، وقد وافق عليه بطرس الحواري في رسالتهِ الاولى: فقد اوصى العبيد بان يخضعوا لسادتهم ويخافوهم — فسقطت دعوى كرومر في ان الديانة المسيحية لم تُوافق على الاسترقاق مطلقاً ،

لأنها كما علمت وافقت عليهِ وقرَّرتهُ وزادت على ذلك انها لم تأمر السادة والاغنياء بما امرتهم بهِ الشريعة الاسلامية من تحريرهم وفك اغلال الرق عنهم

— لِمَ لم يهتمّ المسيح عليهِ السلام بشأن الارقَّاء ويرقّ لحالهم ؟ ولِمَ لم ينهَ متّبعيهِ عن الاسترقاق ؟ ولِمَ لم يخفف وطأته ويضعْ له نظاماتٍ تجعله يتلاشى مع مرور الازمان ؟ ولِمَ لم يأمر أتباعه بالرفق والمرحمة واللين نحو الارقاء مقابلة لامره العبيد بطاعة سادتهم والخوف منهم

— رأيتُ جواباً عن ذلك لاحد افاضل المسلمين ، قال : « كان سكوت المسيح عن مثل هذا لانّ الامة لم تستعدّ له مع علمهِ بان الدين الاخير (الاسلام) سيبيّنه في وقته ، وقد عبر عن رسول هذا الدين بقوله : روح الحق الذي يُبين لكم كل شيء »

اللورد لم يستطع انكار فعل المسيحيين بالارقاء لانه معروف مشهور فلذلك قال بعد ذلك:

« ويليق بنا في هذا المقام ان نقول : انَّ من الامور التي توجب الخجل على المسيحي انه لم يكتفِ قبل الآن باسترقاق العبيد ، بل انهُ ارتكب اقبح من ذلك فكان يتخطفهم » — فكانَّ اللورد وجّه هذا الفعل وهو الاسترقاق الى المسيحيين انفسهم وان الدين المسيحي بريء من ذلك ، وقد علمت انَّ دينهم وافق على

الرق كسائر الاديان، وامر الارقاء بالخضوع والخوف من سادتهم، وان الانجيل لم يرد فيهِ شيء بمنع الرق او تخفيف وطأتهِ

لباب ما جاء به الاسلام من الاصلاح نحو الرقيق

من تفكر في قواعد الشريعة العامة ونظر فيها نظر المنصف يجد انها اعظم شريعة سماوية ووضعية تناضل عن الحرية وتدافع عنها، قال تعالى « انَّ اكرمكم عند الله اتقاكم » وقال رسول الله صلى الله عليهِ وسلم : « لافضلَ لعربيٍّ على أعجميٍّ الاَّ بالتقوى » وقال : « سلمان مناَّ اهل البيت » وكان سلمان هذا رجلاً فارسياً وكان رقيقاً مُعتقاً. فلا بدعَ إن حامت عن الرقيق وبذلت جهدها لاخماد نار الرق بالمرة او تخفيف وطأته الى ان تزول متى استعدّ الزمان لذلك كما هي الحالة اليوم — فالاسلام اول مَن نادى بابطال الرق وحثّ عليهِ . وهو اثر من آثاره الحسنة ، وانّ ما قامت بهِ دول اوربا في هذا العهد من تحرير الرقيق هو عين ما يطلبهُ الاسلام، فلذا اعضدت (الدولة العلية العثمانية) ايدها الله هذا المشروع ، واظهرت ارتياحا حسناً نحو هذا الامر ، لانّ دينها يامرها بذلك وليس ما قامت بهِ الدول الاروبية من آثار دينها كما يزعم القسوس بل من آثار تمدنها قال الدكتور السيد توفيق افندي صدقي : يزعم دعاة المسيحية

انَّ ما قام بهِ الاوربيون في الزمن الاخير هو من آثار دينهم فيهم، ولكن الحقيقة انَّ ذلك نتيجة الرقي العقلي والعلمي الذى وصلوا اليهِ عن قريب ولا دخل فيه للدين ، والاَّ فلماذا قضوا القرون العديدة في استعباد الناس على اشنع الاحوال ؟ » اه

وعدا ما تقدم فقد جعلت الشريعة الرق يسقط عن الرقيق بمجرد دعواه الحرية متى اثبت ذلك وعجز مالكه عن اثبات حق ملكه اياه — وقد افتى علماء الحنفية وعليهِ العمل بمحاكم الدولة العلية بأَنه لو جرى لفظ العتق على لسان المالك ولو هازلاً او سكرانَ او مكرهاً يعتق الرقيق المملوك — ولو ولدت الرقيقة ولداً من مالكها فلا يجوز ان تنقل الى ملك آخر ، ومتى مات سيدها صارت حرة — واذا ادَّعت المملوكة ان حملها من سيدها أُعتقت بعد موته ، فان انكر السيد قولها لم يلحق الولد بهِ ، ولكن لا يؤثّر ذلك في عدم عتقها بل تصير معتقةً على كل حال بعد وفاة مالكها — واذا اشترك اثنان مثلاً في شراء رقيق فأَعتق احدهما ما يخصُّه أُعتق الباقي بالرغم عن الشريك او الشركاء وضمن المعتق خسارة شركاءه — واذا حكم الخليفة بأَنَّ رقبة الارقاء المملوكين غير صحيحة نفذ حكمه وأُعتقوا .

هذا وان الرقيق اليوم لا يمكن وجوده ، وان وُجد ففي وجوده

شبهة ، لانه كما قدمنا انَّ الرق انما يثبت في اسرى حرب شرعية مع قوم صارحونا بالعداوة ونصبوا لنا حبائل الاذى، هذا ان رأى الخليفة انّ المصلحة في استرقاقهم ، امّا ان رأى الحكمة في ارجاعهم الى قومهم فلا رق حينئذ ، وذلك قد انقطع منذ امدٍ بعيد ، فلا رق شرعياً اليوم ·

امّا ما يحصل من اختطاف السود وبيعهم والاتجار بهم فليس من الرق في شيء ، بل هو من العمل المنهي عنهُ شرعاً الموعود فاعلهُ باشدّ العذاب كما في بعض الاحاديث ، وفعل بعض اوباش المسلمين وطغامهم اليوم من اختطاف من ذكرنا وبيعهم هو من البعد عن احكام الشريعة المطهرة ، فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون، ويشبه فعلهم هذا في هذه الايام الاخيرة ايام تأخرهم وبعدهم عن احكام شريعتهم السامية وآدابها الراقية ما كان يفعله المسيحيون ايام تأخرهم في العلم والمدنية من اختطاف الناس واستعبادهم وتذليلهم ، وقد قدّمنا أن اللورد لم ينكر اعمال النصارى هذه وتلبسهم بالاسترقاق على اقبح صوره · قال السيد في المجلة :

«يعلم القراء أن علماء الافرنج يعدّون مسألة الرقيق من اكبر المطاعن في الاسلام ، ويفتخرون بأن مدنيتهم ارقى من الاسلام ، لانّ الاسلام يأمر باستعباد البشر وهم يحرّرون الارقاء حباً في الانسانية ،

على أن كتاب دينهم الذي ينصرونه و ينشرونه فيهِ من الشدة على الارقاء ما لا يوجد له نظير في الاسلام ، والاسلام لم يأمر بالرق ولا جعله فرضاً ولا سنة ، وانما هو شيء كان عليهِ الناس من جميع الامم فوضع له من الاحكام ما يمحوه مع الحكمة » اه

اقول علمت انه لا يوجد اليوم رقيق شرعي وأن فعل بعض اسافل المسلمين ليس من الشريعة في شيء · أضف الى ذلك المنكر العظيم ما يصدر من بعض الجركس والكرج من بيع اولادهم ، فانه من الفظاعة وعدم الرحمة بالمكان الذي لا يجهله مسلم ، ولا يقول بهِ مَن عنده ادنى معرفة في دينه ، فمن نكح امرأة اليوم بدعوى أنها ملك يمين اي انها رقيقة مملوكة له فهو زانٍ يجب منعه بالقوة الحاكمة الاَّ إن عقد عليها عقداً شرعياً برضاها واختيارها ، فهي زوجة لا مملوكة فمتى طلقها يحق لها أن تختار بعلاً غيره

هذا حكم الاسلام في هذه المسألة مسألة اختطاف الناس وبيعهم وبيع الاولاد ذكرناها ليعرف الحقَّ فيها الاجانبُ عن الدين الاسلامي الذين لا يعرفون من حقائقه شيئاً بل يجهلونها تمام الجهل، ولولا جهلهم لم يطعنوا على الدين بغياً وافتراء ·

خلاصة ما يأمر به الاسلام نحو الرقيق

علمت فيما سبق ان الاسلام أَمر باعتاق الرقيق وحثَّ الاغنياء على ابتياعه وتحريره لتخفيف وطأته الى أن يتلاشى الرق بالمرة . ثم انه لم يكتفِ بذلك ، بل امر مَن كان تحت يده رقيق أَن يعامله بالحسنى ، وأَن يُطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ، وأن لا يُكلّفه من العمل فوق طاقته ، وإن كلفه بذلك فأَمره باعانته ومشاركته في العمل ، الى غير ذلك من الشروط التي تجعل الرقيق سعيداً رافهاً ، بل تجعله كأنه عضوٌ من اعضاء العائلة ، واوعدت الشريعة مَن يخالف ذلك بالوعيد الشديد . قال الله تعالى : « واعبدوا الله ولا تُشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكينِ والجارِ ذي القربى (القريب) والجارِ الجُنُب (البعيد) والصاحب بالجنب (هو الرفيق في امرٍ حسنٍ كتعلُّم وصناعة وسفر) وابن السبيل (المسافر والضيف ، اي يأمركم بالاحسان الى المذكورين جميعاً ثم ذكر الاحسان الى الارقاء فقال:) وما ملكتْ أَيمانُكم ، (اي يأمركم بحسن معاملتهم ، ثم ختم الاية بقوله:) ان الله لا يُحبُّ مَن كان مُختالاً فخورا » — وجاء في الحديث الشريف: « مَن لطم مملوكه أو ضربه فكفّارته عتقه » وفي الحديث المتّفق

عليهِ عن واصل الاحدب عن المعرور قال : « لقيتُ ابا ذَرٍّ بالرَّبذة وعليه حُلَّة وعلى غلامه (رقيقه) حُلة ، فسألته عن ذلك فقال : إني سابيتُ رجلاً فعيَّرتُه بأمه فقال لي النبي صلى الله عليهِ وسلم : ياابا ذَرّ أعيَّرته بأمه ؟ إنك امرؤٌ فيك جاهلية ، إخوانكم خَوَلكم (عبيدكم) جعلهم الله تحت ايديكم ، فمن كان اخوه تحت يده فَلْيُطعمهُ مما يأكل ولْيلبسه مما يلبس ، ولا تُكلّفوهم ما يغلبهم فان كلَّفتموهم فأعينوهم » — انت ترى من ذلك أن الشريعة ساوت بين العبد وسيده . وأمرت السادة ان يعاملوا مماليكهم كما يعاملون اخوانهم واولادهم وانفسهم ، وأن يعينوهم ان كلفوهم مالا يقدرون عليهِ من العمل ، وفي ذلك من الشفقة عليهم والمرحمة بهم وإعظام شأنهم ما يليق بمكارم شريعةٍ ذات آداب سامية ، واخلاق راقية ، كالشريعة الاسلامية .

قال الغزالي في الاحياء في باب حقوق المملوك : « فأما ملك اليمين فهو يقتضي حقوقاً في المعاشرة لا بدَّ من مراعاتها ، فقد كان آخر ما اوصى بهِ الرسول صلى الله عليهِ وسلم أنه قال : « اتقوا الله فيما ملكت ايمانكم ، (يعني الارقاء) اطعموهم مما تاكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلّفوهم من العمل مالا يطيقون ، فما أحببتم فأمسكوا ، وما كرهتم فبيعوا ، ولا تعذِّبوا خلق الله ، فانَّ الله ملككم اياهم ، ولو

شاء لملكهم اياكم » وقال صلى الله عليهِ وسلم : « للملوك طعامه وكسو[ته]
بالمعروف ، ولا يُكلّف من العمل مالا يطيق » وقال عليهِ السلام :
لا يدخل الجنة خبٌّ (خداع) ولا متكبر ولا خائن ولا سيء الملكة »
اسيء الذى يسيء الى مَن يملكه من الارقاّء ، وفي حديث آخر :
« لا يدخل الجنة خبٌّ ولا بخيل ولا منّان (هو الذى يعطي ويمتنّ
على مَن اعطاه) ولا منافق ولا سيئ الملكة ، واول مَن يقرع باب
الجنة المملوك والمملوكة ، فاتقوا الله واحسنوا فيما بينكم وبين الله ،
وفيما بينكم وبين مواليكم » اي مماليككم . وقال عبد الله بن عمر رضي
الله عنهما : « جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فقال
يا رسول الله كم نعفو عن الخادم (يريد المملوك) فصمت رسول الله
صلى الله عليهِ وسلم ثم قال اعفوا عن الخادم كلَّ يوم سبعين مرة »
— وكان عمر (رضه) يذهب الى العوالي [1] في كل يوم سبت ، فاذا
وجد عبداً في عمل لا يطيقه وضع عنه منه . ويروى عن ابي
هريرة (رضه) انه رأى رجلاً على دابة وغلامه (رقيقه) يسعى
خلفه فقال : يا عبد الله احمله خلفك فانما هو اخوك ، روحه مثل
روحك فحمله ، ثم قال (ابو هريرة) : لا يزال العبد يزداد من الله

---

(١) العوالي : موضع قرب المدينة به نخيل وزراعة

بعدًا ما مُشي خلفه . — وكان عند ميمون بن مهران ضيف فاستعجل على جاريته بالعشاء فجاءت مسرعة ومعها قصعة مملوءة من الثريد فعثرت وأراقتها (صبّتها) على رأس سيدها ميمون فقال : ياجارية أحرقتيني ، فقالت : يامعلم الخير ومؤدّب الناس ارجع الى ماقال الله تعالى ، قال : ماقال الله تعالى؟ قالت : قال : « والكاظمين الغيظ » قال : كظمتُ غيظي ، قالت : « والعافين عن الناس » قال: عفوتُ عنك ، قالت : زِدْ فانّ اللهَ يقول : « والله يُحبُّ المحسنين » قال: فانتِ حُرّة لوجه الله » — وقال ابن المنكدر : انّ رجلاً من اصحاب رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ضرب عبدًا له ، فجعل العبد يقول : أسألُك بالله ، أسألك بوجه الله فلم يُعفِه ، فسمع رسول الله صلى الله عليهِ وسلم صياح العبد فانطلق اليه ، فلما رأى (الرجل) رسولَ الله صلى الله عليهِ وسلم أمسك يده ، فقال رسول الله : سألك بوجه الله فلم تُعفِه ، فلما رأيتني أمسكت يدك ، قال : فانه حرٌّ لوجه الله يا رسول الله ، فقال : لولم تفعلْ لسفعتْ (أحرقت) وجهَك النار » — وقال صلى الله عليهِ وسلم : « العبد اذا نصح لسيده وأحسن عبادةَ الله فله اجره مرتين(١) » — ولمّا أُعتقَ ابو رافع بكى وقال: كان

(١) قال ابن عبد البر : معنى الحديث عندي والله اعلم أن العبد لمّا اجتمع عليه امران واجبان : طاعة سيده في المعروف ، وطاعة ربه فقام بهما جميعاً —

لي أجران فذهب احدهما » وعن ابي مسعود الانصاري قال : « بينا انا اضرب غلاماً لي (عبدي) اذ سمعت صوتاً من خلفي : اعلم يا ابن مسعود مرتين فالتفتُّ فاذا رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ، فألقيتُ السوط من يدي ، فقال : والله لَلّهُ أقدر عليك منك على هذا » — وقال ابو هريرة (رضه) : قال صلى الله عليهِ وسلم : « اذا أتى احدَكم خادمُه بطعامه فلْيُجلسه وليأكلْ معه ، فان لم يفعل فليناوله لقمةً » وفي رواية : « اذا كفى احدكم مملوكُه صنعةَ طعامه فكفاه حرَّه ومؤنتَه وقرَّبه اليه فليجلسْه وليأكل معه ، فان لم يفعل فليناوله او لياخذ اكلةً فلْيروّغها (اي يدسمها بالادام) وأشار بيده ، وليضعْها في يده ، وليقلْ كُلْ هذه » — ودخل على سلمان الفارسي (رضه) رجلٌ وهو يعجن فقال : يا ابا عبد الله ما هذا ؟ قال : بعثنا الخادم فى شغل فكرهنا ان نجمع عليه عملين » — وقال

— كان له ضعفا اجر الحرّ المطيع لربه مثل طاعته ، لانه اطاع الله فيما امره به من طاعة سيده ونصحه ، واطاعه هو ايضاً فيما افترضه عليه ، ومن هذا المعنى عندي انه من اجتمع عليه فرضان فاداهما كان افضلَ ممن ليس عليه الا فرض واحد فاداه : فمن وجبت عليه زكاة وصلاة فقام بهما فله اجران ، ومَن لم تجب عليه زكاة وادى صلاته فله اجر واحد ، وعلى هذا يعصى مَن اجتمعت عليه فروض فلم يؤدّ منها شيئاً ، وعصيانه اكثر من عصيان مَن لم تجب عليه الا بعض تلك الفروض والله اعلم » اه

صلى الله عليهِ وسلم : « من كانت عنده جارية فصانها وأحسن اليها ثم اعتقها و تزوّجها فذلك له اجران » وقال عليهِ الصلاة والسلام : « كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته »

هذا وكما امرت الشريعة المطهرة العادلة بحسن معاملة الارقاء ومساواتهم بسادتهم والاحسان اليهم — امرت بتربيتهم وتهذيبهم وتعليمهم ، قال الرسول (ص) : « ثلاثة لهم اجران : رجلٌ من اهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد صلى الله عليهِ وسلم ، والعبد المملوك اذا أدّى حقّ الله وحقّ مواليه ، (سادته) ورجلٌ كانت عنده أَمةٌ (رقيقة) يطؤها فأدّبها فأَحسن تأديبها ، وعلّمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوّجها فله اجران »

وفي الباب احاديثُ وآثار وحكايات يضيق هذا الفصل دون ذكرها ، وفي الاحياء وشرحه وكتب الاحاديث والادب والتاريخ شيء كثير من ذلك ، فليرجع اليه مَن شاء ، وكلها دالة على ماجاءت بهِ الشريعة الاسلامية من الاصلاح الحقيقي نحو الارقاء .

وقد ورد النهي شرعاً عن أن يقول السيد لمملوكه : عبدي ، لانّ فيهِ ذروًا من التكبر والاستعلاء عليهِ ، قال الرسول (ص) « لا يقلْ احدُكم : عبدي ، امتي . وليقلْ : فتاتي وغلامي » — وقد قال ايضاً : « سلمان منا اهل البيت » وكان سلمان رقيقاً مُعتقاً . وروى

البيضاوي عند تفسير قوله تعالى : « قل للمؤمنات » الى قوله : « أو ما ملكت ايمانهنّ » انه عليهِ السلام اتى الى فاطمة (ابنته رضي الله عنها) بعبدٍ وهبه لها وعليها ثوب اذا قنّعت به رأسها لم يبلغ رجليها، واذا غطّت رجليها لم يبلغ رأسها ، فقال عليهِ السلام : انه ليس عليكِ بأس، انما هو ابوكِ وغلامك » — فأنظر ايها القاريء لحسن الادب وجميل المعاملة ومكارم الاخلاق : فقد ألحق سلمان في الحديث الاول بالنسب الشريف ، وجعل العبد الرقيق بمنزلة نفسه صلى الله عليه وسلم حيث قال لها : انما هو ابوكِ ، ولا عجب من ذلك وهو الذي قال الله تعالى في حقه : « وانك لعلى خُلُق عظيم » وهو الذي قال عن نفسه : « انما بُعثتُ لأُتمّم مكارم الاخلاق » صلى الله عليهِ وسلم ، ورحمهُ رحمةً واسعةً ، وجزاه عنا وعن الآداب والفضيلة والمدنية احسن الجزاء .

وكما حثّ الشرع الشريف على ما أسلفناه حثّ على تزويج الارقاء ذكراناً كانوا او إناثاً متى بلغوا سنّاً يصلحون معها للزواج ، قال تعالى :«وأنكحوا الايامى[1] منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم»

---

(١) الايامى جمع ايّم وهو العزب ذكرًا كان او انثى . والعباد جمع عبد ويجمع ايضاً على عبدين جمع سلالة ، وعلى عبيد جمع تكسير . والإماء جمع أمة وهي الرقيقة .

اي زوّجوا الصالح للنكاح من عبيدكم الذكور والاناث .

وجملة حقوق المملوك كما قال الغزالي في آخر باب حقوق المملوك «أن يُشركه في طعمته وكسوته ، ولا يكلّفه فوق طاقته ، ولا ينظر اليهِ بعين الكبر والازدراء ، وأن يعفو عن زلته ، ويفتكر عند غضبه عليه بهفوته وجنايته (اي يفتكر المالك عند غضبه على مملوكه بهفوة نفسه وجنايته) على حق الله وتقصيره في طاعته مع ان قدرة الله عليه فوق قدرته » ثم اورد الامام المذكور حديثاً في حق من يتكبر على العباد وجعله ختام الباب فقال : « روى فضالة ابن عُبيد (الانصاري الاوسي الصحابي) أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : ثلاثةٌ لا يسأل الله عنهم : رجلٌ ينازع الله رداءه ، ورداؤه الكبرياء وإزاره العز ، ورجل في شك من الله ، وقنوط من رحمة الله » اي يائس منها اذ لا ييأس من رحمة الله الا القوم الكافرون .

﴿ وبالجملة ﴾ فان ما اتى بهِ الاسلام من اصلاح حال الرقيق وحقوقه المقدسة لم تحلُمْ به شريعة من الشرائع ، كما أنّ كل ما جاء به كتابه من اصلاح دنيوي او اخروي لم يساوهِ فيه كتاب مُنزل ، ولا رقيم موضوع ، فهو خير دين أُخرج للناس .



باب

المرأة في الاسلام

وما يتعلق بها

تمهيد

مسألة المرأة مثلت دورًا مهماً من ادوار المباحث العصرية المفيدة ، وقد قام بتمثيله الاقلام على مرسح الصفحات ،والالسنة في النوادي،والعقول تملي ذلك على اللسانين ، فمن مخطيء ومن مصيب، ومن حائم حول الحمى ، كما هو الشأن في كل مبحث على اختلاف موضوعه ، غير اني رأيت البحث عن المرأة في هذه الايام الاخيرة هو اهمّ تلك المباحث واجدرها بالاعتبار ،ولذلك اخذ ذلك المركز في نفوس العقلاء والجهلاء معاً ، وقامت له تلك الضجة العظيمة وذلك الضوضاء الذي عمّ القرى والبلاد باسرها ، خصوصاً بعدان كتب سعادة قاسم بك امين كتابيه « تحرير المرأة والمرأة الجديدة» ولم يكن لي في تلك الايام ان أخوض مع الخائضين ، لاني كنت

اذ ذاك في طور التلمذة بل في سن لا استطيع معها حمل اليراع والمناضلة في ذلك المعترك الذي أراق دماء المحابر على ساحات الاوراق، وحطّم وشيج الاسنة في صدور الصفحات . غير أنّ ذلك لم يمنعني من تلاوة تلك المؤلفات وتفهمها حسب ما استطيع، ولكن لم يكن لي رأي أبديه . وبعد أن منّ الله عليّ بشيء من العلم والادب جاز لي أن أزجّ رأيي في الاراء، وأُدلي دلوي بين الدلاء، فان اصبت فذلك ما كنت ابغي، وان اخطأت فلست اول سارٍ غرّه قمر . وقد وجدت الآن مكان القول ذا سعة بما كتبه جناب اللورد كرومر في امر المرأة المسلمة، وما افتراه على الدين بشأنها في ضمن ما جناه عليه من الترهات والكذبات التي بينّا الحق فيها فيما سلف من ابواب هذه الرسالة، فقد وصف هذا الدين الشريف ذا الآداب السامية، والاحكام العالية، بأنه جعل المرأة في مركز منحط جداً، وأنه يتضمن سنناً وشرائع عن علاقات الرجال والنساء مناقضة لاراء هذا العصر، ثم هو يعيبه من حيث هو شريعة اجتماعية أنه اباح تعدد الزوجات والطلاق — جناب اللورد يعيب الاسلام في اباحة تعدد الزوجات والطلاق وان تكن قوانين اوربا قد أباحتهما اخيراً بالرغم عن معارضة الكنيسة، وقد ثبت رسمياً في هذه الايام أنّ جناب ادوار السابع ملك انكلترا اصدر منشوراً باباحة تعدد الزوجات

يعمل بموجبه — وسنبين افتراء اللورد على الدين بشأن المرأة وما يتعلق بها ونردّ على مزاعمه الفاسدة، ونُظهر حقيقة ما جاء به الاسلام نحو المرأة من الاصلاح ، ونُوضح كل ما ظنه اللورد مناقضاً للمدنية من حال المرأة المسلمة . وإنا نقدّم لذلك مقدمة في ماهية المرأة ووظيفتها في هذا المجتمع التي خُلقت لاجلها مستندين على ماجاء في الشرائع السماوية والوضعية واقوال فلاسفة الاجتماع وعلماء العمران فنقول :

ما هي المرأة ؟

المرأة مخلوق لطيف من جنس الاناسي اوجده الحق سبحانهُ ليتمّ بهِ النظام الذى شاءه من بقاء الانسان الى اجل مسمى ، فيانس به الرجل ويسكن اليهِ ، ويكون من ذلك التزاوج الذى به بقاء هذا النوع . وقد خلقه الله مختلفاً عن الرجل من حيث تركيب الجسم والقوة والعقل والتدبير وغير ذلك من الاحوال التي يمتاز بها الرجال عن النساء ، والحكمة من ذلك أن يكون لاحدهما نوع سيطرة على الآخر ليمكن الاتفاق ، ولو جعلهما متساويين قوة وعقلاً وعضلات لم يُتصوّر أن يكون بينهما امتزاج قط ، وانّ نظام هذا الكون مبني على عدم التساوى الكلي ، بل لا بد وان يكون فارق بين الانواع

والاجناس ليحفظ القوي الضعيف، وينقاد الضعيف للقوي اي يُوجد عنده شفقة ومرحمة يعطف بها عليه، وهذا نظام ثابت مُحكم مبني على حكمة عظيمة لا يمكن أن يزعزعها مزعزع، ولهذا كان الحكّام ملح الارض، لانَّ بهم قوامها وحياتها، فلو فسد النظام واغتال القوي الضعيف كان من ذلك الخراب والدمار، ولو كان كل الناس حكاماً لبطل العمران واُختل عمل الحياة السعيدة وهكذا لو خُلقت المرأة مساوية للرجل من كل الوجوه لا متنعت أن تكون تحت نظامه، وهو بالطبع يأبى أن يكون تحت سيطرتها، فلا هي تسكن اليه ولا هو يسكن اليها، فيتولد بينهما النفور، فلا يمكن التآلف والتزاوج، فلا يكون نظام، فلا يُوجد انسان، فلا ينشأ عمران، فعلى الدنيا السلام . — نتج من ذلك ان خضوع احدهما للآخر من ضروريات الحياة التي لا ينكرها الاَّ المكابرون، فلو حاولنا أن نجبر الرجل على الرضوخ لسلطان المرأة يصدق علينا قول الشاعر :

ومكلّف الايام ضدّ طباعها مُتطلّبٌ في الماء جذوة نارِ

وذلك أنَّ ما فيه من القُوى والغرائز التي امتاز بها عن المرأة تجعله بحكم القسر لا ينقاد لها، واذا اردنا اَن نجعل المراَة تحت سلطة الرجل بما اودعه الله فيها من الطباع نجد اَن ذلك في غاية السهولة، بل انها منذ القدم الى يومنا هذا تحت رعايته وحفظه، وهو

لي أجران فذهب احدهما » وعن ابي مسعود الانصاري قال : « بينا انا اضرب غلاماً لي (عبدي) اذ سمعت صوتاً من خلفي : اعلم يا ابن مسعود مرتين فالتفتُّ فاذا رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ، فألقيتُ السوطَ من يديَّ ، فقال : والله للهُ أقدر عليك منك على هذا » — وقال ابو هريرة (رضه) : قال صلى الله عليهِ وسلم : « اذا أتى احدَكم خادمُهُ بطعامه فَلْيُجلسه وليأكلْ معه ، فان لم يفعل فَليناوله لقمةً » وفي رواية : « اذا كفى احدكم مملوكُه صنعةَ طعامه فكفاه حرَّه ومؤنتَه وقرَّبه اليه فليجلسْه وليأكل معه ، فان لم يفعل فَليناوله او لياخذْ اكلةً فَلْيروِّغها (اي يدسمها بالادام) وأشار بيده ، وليضعْها في يده ، وليقلْ كُلْ هذه » — ودخل على سلمان الفارسي (رضه) رجلٌ وهو يعجن فقال : يا ابا عبد الله ما هذا ؟ قال : بعثنا الخادم في شغل فكرهنا ان نجمع عليه عملين » — وقال

— كان له ضعفا اجر الحرّ المطيع لربه مثل طاعته ، لانه اطاع الله فيما امره به من طاعة سيده ونصحه ، واطاعه هو ايضاً فيما افترضه عليه ، ومن هذا المعنى عندي انه من اجتمع عليه فرضان فاداهما كان افضل ممن ليس عليه الا فرض واحد فاداه : فمن وجبت عليه زكاة وصلاة فقام بهما فله اجران ، ومَن لم تجب عليه زكاة وادى صلاته فله اجر واحد ، وعلى هذا يعصى مَن اجتمعت عليه فروض فلم يؤدّ منها شيئاً ، وعصيانه اكثر من عصيان مَن لم تجب عليه الا بعض تلك الفروض والله اعلم » اهـ

صلى الله عليهِ وسلم : « من كانت عنده جارية فصانها وأحسن اليها ثم اعتقها و تزوجها فذلك له اجران » وقال عليهِ الصلاة والسلام : « كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته »

هذا وكما امرت الشريعة المطهرة العادلة بحسن معاملة الارقاء ومساواتهم بسادتهم والاحسان اليهم — امرت بتربيتهم وتهذيبهم وتعليمهم ، قال الرسول (ص) : « ثلاثة لهم اجران : رجلٌ من اهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد صلى الله عليهِ وسلم ، والعبد المملوك اذا أدّى حقّ الله وحقّ مواليه ، (سادته) ورجلٌ كانت عنده أَمةٌ (رقيقة) يطوءها فأدّبها فأحسن تأديبها ، وعلّمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوّجها فله اجران »

وفي الباب احاديثُ وآثار وحكايات يضيق هذا الفصل دون ذكرها ، وفي الاحياء وشرحه وكتب الاحاديث والادب والتاريخ شيء كثير من ذلك ، فليرجع اليه مَن شاء ، وكلها دالة على ماجاءت بهِ الشريعة الاسلامية من الاصلاح الحقيقي نحو الارقاء .

وقد ورد النهي شرعاً عن أن يقول السيد لمملوكه : عبدي ، لانّ فيهِ ذروا من التكبر والاستعلاء عليهِ ، قال الرسول (ص) « لا يقلْ احدُكم : عبدي ، امتي . وليقلْ : فتاتي وغلامي » — وقد قال ايضاً : « سلمان منا اهل البيت » وكان سلمان رقيقاً معتقاً . وروى

البيضاوي عند تفسير قوله تعالى : « قل للمؤمنات » الى قوله : « أَو ما ملكت ايمانهنَّ » انه عليهِ السلام اتى الى فاطمة (ابنته رضي الله عنها) بعبدٍ وهبه لها وعليها ثوب اذا قنَّعت به رأْسها لم يبلغ رجليها ، واذا غطَّت رجليها لم يبلغ رأْسها ، فقال عليهِ السلام : انه ليس عليكِ بأْس ، انما هو ابوكِ وغلامك » — فأُنظر ايها القاريء لحسن الادب وجميل المعاملة ومكارم الاخلاق : فقد أَلحق سلمان في الحديث الاول بالنسب الشريف ، وجعل العبد الرقيق بمنزلة نفسه صلى الله عليه وسلم حيث قال لها : انما هو ابوكِ ، ولا عجب من ذلك وهو الذي قال الله تعالى في حقه : « وانك لعلى خُلُق عظيم » وهو الذي قال عن نفسه : « انما بُعثتُ لأُتمّم مكارم الاخلاق » صلى الله عليهِ وسلم ، ورحمهُ رحمةً واسعةً ، وجزاه عنا وعن الآداب والفضيلة والمدنية احسن الجزاء .

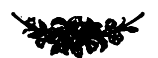
وكما حثَّ الشرع الشريف على ما أَسلفناه حثَّ على تزويج الارقاَّء ذكرانًا كانوا او إِناثًا متى بلغوا سنًّا يصلحون معها للزواج ، قال تعالى : «وأَنكحوا الايامى(١) منكم والصالحين من عبادكم وإِمائكم»

(١) الايامى جمع ايّم وهو العزب ذكرًا كان او انثى . والعباد جمع عبد ويجمع ايضاً على عبدين جمع سلامة ، وعلى عبيد جمع تكسير . والإِماء جمع أمة وهي الرقيقة .

اي زوّجوا الصالح للنكاح من عبيدكم الذكور والاناث .

وجملة حقوق المملوك كما قال الغزالي في آخر باب حقوق المملوك «أنْ يُشركه في طعمته وكسوته ، ولا يكلّفه فوق طاقته ، ولا ينظر اليهِ بعين الكبر والازدراء ، وأن يعفو عن زلته ، ويفتكر عند غضبه عليه بهفوته وجنايته (اي يفتكر المالك عند غضبه على مملوكه بهفوة نفسه وجنايته) على حق الله وتقصيره في طاعته مع ان قدرة الله عليه فوق قدرته » ثم اورد الامام المذكور حديثاً في حق من يتكبر على العباد وجعله ختام الباب فقال : « روى فضالة ابن عُبيد (الانصاري الاوسي الصحابي) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ثلاثةٌ لا يسأل الله عنهم : رجلٌ يُنازع الله رداءه ، ورداؤه الكبرياء وإزاره العز ، ورجل في شك من الله ، وقنوط من رحمة الله » اي يائس منها اذ لا ييأس من رحمة الله الا القوم الكافرون .

﴿ وبالجملة ﴾ فان ما اتى بهِ الاسلام من اصلاح حال الرقيق وحقوقه المقدسة لم تحلُمْ به شريعة من الشرائع ، كما أنَّ كل ما جاء به كتابه من اصلاح دنيوي او اخروي لم يساوِه فيه كتاب مُنزل ، ولا رقيم موضوع ، فهو خير دين أُخرج للناس .



باب

المرأة في الاسلام

وما يتعلق بها

تمهيد

مسألة المرأة مثلّت دورًا مهماً من ادوار المباحث العصرية المفيدة ، وقد قام بتمثيله الاقلام على مرسح الصفحات ، والالسنة في النوادي ، والعقول تُملي ذلك على اللسانين ، فمن مخطيءٍ ومن مصيبٍ ، ومن حائم حول الحمى ، كما هو الشأن في كل مبحث على اختلاف موضوعه ، غير اني رأيت البحث عن المرأة في هذه الايام الاخيرة هو اهمّ تلك المباحث واجدرها بالاعتبار ، ولذلك اخذ ذلك المركز في نفوس العقلاء والجهلاء معاً ، وقامت له تلك الضجة العظيمة وذلك الضوضاء الذي عمّ القرى والبلاد باسرها ، خصوصاً بعدان كتب سعادة قاسم بك امين كتابيه « تحرير المرأة والمرأة الجديدة » ولم يكن لي في تلك الايام ان أخوض مع الخائضين ، لاني كنت

اذ ذاك في طور التلمذة بل في سن لا استطيع معها حمل اليراع والمناضلة في ذلك المعترك الذي أراق دماء المحابر على ساحات الاوراق، وحطّم وشيج الاسنة في صدور الصفحات . غير أنّ ذلك لم يمنعني من تلاوة تلك المؤَلفات وتفهمها حسب ما استطيع، ولكن لم يكن لي رأي أُبديه . وبعد أن منّ الله عليّ بشيء من العلم والادب جاز لي أن أزجّ رأيي في الاراء، وأُدلي دلوي بين الدّلاء، فان اصبت فذلك ما كنت ابغي، وان اخطأْت فلستُ اولَ سارٍ غرّه قمر . وقد وجدت الآن مكان القول ذا سعة بما كتبه جناب اللورد كرومر في امر المرأة المسلمة، وما افتراه على الدين بشأْنها في ضمن ما جناه عليه من الترهات والكذبات التي بيناً الحق فيهـا فيما سلف من ابواب هذه الرسالة، فقد وصف هذا الدين الشريف ذا الآداب السامية، والاحكام العالية، بأَنه جعل المرأة في مركز منحط جداً، وأَنه يتضمن سنناً وشرائع عن علاقات الرجال والنساء مناقضة لاراء هذا العصر، ثم هو يعيبه من حيث هو شريعة اجتماعيـة أَنه اباح تعدد الزوجات والطلاق — جناب اللورد يعيب الاسلام في اباحة تعدد الزوجات والطلاق وان تكن قوانين اوربا قد أَباحتهما اخيراً بالرغم عن معارضة الكنيسة، وقد ثبت رسمياً في هذه الايام أَنّ جناب ادوار السابع ملك انكلترا اصدر منشوراً باباحة تعـدد الزوجات

يعمل بموجبه — وسنبين افتراء اللورد على الدين بشأن المرأة وما يتعلق بها ونردّ على مزاعمه الفاسدة، ونُظهر حقيقة ما جاء به الاسلام نحو المرأة من الاصلاح، ونُوضح كل ما ظنه اللورد مناقضاً للمدنية من حال المرأة المسلمة · وإنا نقدّم لذلك مقدمة في ماهية المرأة ووظيفتها في هذا المجتمع التي خُلقت لاجلها مستندين على ماجاء في الشرائع السماوية والوضعية واقوال فلاسفة الاجتماع وعلماء العمران فنقول :

ما هي المرأة ؟

المرأة مخلوق لطيف من جنس الاناسي اوجده الحق سبحانهُ ليتمّ بهِ النظام الذى شاءه من بقاء الانسان الى اجل مسمى ، فيانس به الرجل ويسكن اليهِ ، ويكون من ذلك التزاوج الذى به بقاء هذا النوع · وقد خلقه الله مختلفاً عن الرجل من حيث تركيب الجسم والقوة والعقل والتدبير وغير ذلك من الاحوال التي يمتاز بها الرجال عن النساء ، والحكمة من ذلك أن يكون لاحدهما نوع سيطرة على الآخر ليمكن الاتفاق ، ولو جعلهما متساويين قوة وعقلاً وعضلات لم يُتصوَّر أن يكون بينهما امتزاج قط ، وانَّ نظام هذا الكون مبني على عدم التساوى الكلي ، بل لا بد وان يكون فارق بين الانواع

والاجناس ليحفظ القوي الضعيف، و ينقاد الضعيف للقوي اي يُوجد عنده شفقة ومرحمة يعطف بها عليه، وهذا نظام ثابت مُحكم مبني على حكمة عظيمة لا يمكن أن يزعزعها مزعزع ، ولهذا كان الحكام ملح الارض ، لانَّ بهم قوامها وحياتها ، فلو فسد النظام واغتال القوي الضعيف كان من ذلك الخراب والدمار ، ولو كان كل الناس حكاماً لبطل العمران واُختل عمل الحياة السعيدة وهكذا لو خُلقت المرأة مساوية للرجل من كل الوجوه لا متنعت أن تكون تحت نظامه ، وهو بالطبع يأبى أن يكون تحت سيطرتها ، فلا هي تسكن اليه ولا هو يسكن اليها ، فيتولد بينهما النفور ، فلا يمكن التآلف والتزاوج ، فلا يكون نظام ، فلا يُوجد انسان ، فلا ينشأ عمران ، فعلى الدنيا السلام . — نتج من ذلك ان خضوع احدهما للآخر من ضروريات الحياة التي لا ينكرها الاَّ المكابرون ، فلو حاولنا أن نجبر الرجل على الرضوخ لسلطان المرأة يصدق علينا قول الشاعر :

ومكلّف الايام ضدّ طباعها مُتطلّبٌ في الماء جذوة نارِ

وذلك أَنَّ ما فيه من القُوى والغرائز التي امتاز بها عن المرأة تجعله بحكم القسر لا ينقاد لها ، واذا اردنا اَن نجعل المراَة تحت سلطة الرجل بما اودعه الله فيها من الطباع نجد اَن ذلك في غاية السهولة ، بل انها منذ القدم الى يومنا هذا تحت رعايته وحفظه ، وهو

قوّام عليها ، حفيظ امين على تلك الوديعة التي أستودعته اياها طبيعتها « الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من اموالهم » — فمحاولة نفر من نبت اليوم إخراجها عن محيط طبيعتها وجعلها مساوية للرجل او مُقدَّمة عليه عبثٌ مخالف لنظام الكون . اما كونها اقلّ من الرجل قوة وعقلاً واضعف عضلات الى غير ذلك من الصفات التي امتاز بها الرجل واستحقّ ان يكون قوّاماً عليها بسببها فليس من شأني ان اذكره الآن لانه من المباحث التشريحية التي يُرجع بها الى علماء هذا الفن او الى كتبه المستفيضة بهذا الشأن ، ومن اراد ان يحقق صحة ذلك فليسأل الاطباء او فليقرأ الكتب الموضوعة لذلك يجد أنّ ماقلناه حق لامرية فيه — ومما يحقق هذا ايضاً وصفُ هذا الجنس منذ القدم باوصاف تشعر بانحطاطه عن مرتبة الرجل ، ولكن هذا الانحطاط لا يجعل المراة آلة بيده يتصرّف بها كيف شاء كما سنحقق ذلك ، وقد وصفتها الشريعه الاسلامية برقة الاحساس ودقة الشعور فشبهتها بالزجاج اشارةً الى انه لايجوز تكليفها مالا تستطيع ، ولا ينبغي ان تسمع ماتتاثر منه ، حتى نُهيَ عن انشاد الشعر بحضرتها لئلا يجرح احساسها ، وتتاثّر عواطفها . ووصفها ابناء العصر الحاضر بالجنس اللطيف ، وكلا الوصفين راجع لمعنى واحد ، غير انّ الوصف الاول هو ارق

وابلغ في الدلالة ، وفيه تمثيل لحالتها وشعورها بما هو تماماً — كل ذلك فيه دلالة صريحة على انها لم تبلغ مبلغ الرجل من تحمل المشاق ومتاعب الحياة ، على ان وصفها بالجنس اللطيف هو من اقوال اهل المدنية الحديثة الذين يحبُّ اكثرهم مساواتها بالرجل من جميع الوجوه فهم إما مخطئون في الوصف ، او جائرون بالطلب . على اننا لم نعدم قوماً مُنصفين من اهل العصر من اوربيين وغيرهم عرفوا فساد هذا الزعم وفنَّدوه تفنيداً وابانوا باجلى قول ان هذا الطلب ضرب من المحال ، فالراغب فيه كالراغب في بيض الانوق او عنقاء مُغرب .

قالت دائرة معارف القرن التاسع عشر الفرنساوية :

« ان تركيبها الجثماني يقرب من تركيب الطفل ، ولذلك تراها مثله ذات حساسية حادة جداً ، وتتأثر بغاية السهولة بالاحساسات المختلفة كالفرح والالم والخوف ، وبما ان هذه المؤثرات تؤثر على تصوّرها بدون ان تكون مصحوبة بتعقل ، فلذلك تراها لا تستمر لديها الاَّ قليلاً ، ومن هنا صارت المرأة مُعرَّضة لعدم الثبات »

وقال (برودون) الفيلسوف الاشتراكي في كتابه « ابتكار النظام » : « ان وجدان المرأة اضعف من وجداننا بقدر ضعف عقلها عن عقلنا ، ولاخلاقها طبيعة اخرى غير طبيعة اخلاقنا ، فالشيء الذى تحكم عليه بالقبح او الحسن لا يكون هو عينه ما يحكم عليه

الرجل كذلك ، بحيث ان المرأة بالنسبة الينا يمكن أن تُعتبر غير موءَدبة . لاحظها جيداً ترَانها إما مفرِطة او مفرِّطة في جنب العدالة فان عدم المساواة خاصية نفسها ، ولا ترى عندها الميل لتوازن الحقوق والواجبات ، وهو الميل الذي يؤلم الرجل ويسوقه ان لم يتحصل عليه الى الدخول مع امثاله في نزاع شديد ، فالشيء الذي تحبه اكثر من كل شيء وتعبده هو الامتيازات والخصوصيات . أمّا العدالة التي تسوّي بين صنوف البشر فهي بالنسبة للمرأة عبء ثقيل لا تحتمله

وقالت دائرة المعارف الكبرى :

« انَّ الرجل اكثر ذكاء وادراكاً ، واماَّ المرأة فاكثر انفعالاً وتهيجاً »

ترى مما قدمناه انه لا يمكن مساواة المرأة بالرجل ، وانّ الحرية الموهومة التي يتطلّبها لها زعماء تحريرها هى تقويض لاركان العائلات ، بل هي سعيٌ لابادة الجنس اللطيف بما يطرأ عليه من المتاعب والاعمال التي ليس في قدرته تحمّلها ، ولا في وسعه القيام بمهاتها ، فلذا اقتضت حكمة الله ان يكون الرجل هو الكفيل لها والحفيظ عليها بمقابلة قيامها بأمر منزلها وتدبير شؤون بيتها وتهذيب اطفالها ، فالزامها بغير ذلك من الجهاد في معترك الحياة الذى يقوم الرجال بالنضال فيه : خروج بها عن حياتها الحياة الطيبة الى إضعاف جسمها وتحميلها مالا يُستطاع »

قال الاستاذ (اجوست كونت) في كتاب « النظام السياسي على حسب الفلسفة الحسية » :

(نحن بدون أن نكاف انفسنا مناقشة تلك المستحيلات الخيالية (تحرير المرأة) المؤخرة للرقي — بأنه لو نال النساء يوماً من الايام هذه المساواة المادية التي يتطلبها لهن زعماء الدفاع عنهن بغير رضائهن ، فان ضمانتهن الاجتماعية تفسد على قدر ما تفسد حالتهن الادبية ، لأنهن في تلك الحالة سيكن خاضعات في اغلب الصناعات لمزاحمة يومية قوية بحيث لا يمكنهن القيام بها ، كما انه في الوقت نفسه تتكدر المنابع الاصلية للمحبة المتبادلة »

وقال الاستاذ (جول سيمون) في مجلة المجلات الفرنساوية :

« المرأة التي تشتغل خارج بيتها تؤدي عمل عامل بسيط ، ولكنها لا تؤدى عمل امرأة »

وقال فيها ايضاً :

« النساء قد صرن الآن نساجات وطباعات الخ الخ وقد استخدمتهن الحكومة في معاملها ، وبهذا قد اكتسبن بعض دريهمات ولكنهن في مقابل ذلك قد قوضن دعائم عائلاتهن تقويضاً ، نعم ان الرجل صار يستفيد من كسب امرأته ، ولكن بازاء ذلك قد قل مكسبه لمزاحمتها له في عمله

وقال (اوجست كونت) في كتابه « النظام السياسي » :

«يجب ان تكون الحياة النسائية منزلية على قدر الامكان، ويجب تخلصها من كل عمل خارجي ليمكنها ان تُحقق وظيفتها الحبية على ما يرام »

هذه بعض اقوال فلاسفة الاجتماع وعلماء العمران الذين يبذلون وسعهم لتحقيق ما يعود على هذا المجتمع بالخير والسلام ، وكلها شاهدة ناطقة بانه لا يجوز أن تُساوى النساء بالرجال ، لانّ في ذلك فساد النظام وتلاشي الاجتماع ، فلا بدّ أن يكون عمل المرأة محصوراً لا يتجاوز اسوار دارها ، والاّ كان في ضده خراب العائلات الذى يُنتج انحلال المدنية وتقويض اركان المحبة والوئام

قلنا فيما تقدم : ان مساواة الجنسين ضرب من المحال ولو وُجد لسقطت المرأة عن الاعتبار والمقام السامي الذى هو لها في نفوس الرجال ، وذلك انها ان كانت مساوية لهم في جميع الحقوق فلا يمكن حينئذٍ أن يميلوا اليها ميلهم الاول حينما كانت خاضعة لهم. ومن درس تاريخ المرأة يظهر له باجلى بيان انه مضى عليها حين من الدهر كانت فيه مستقلة حرة بجميع الاعمال ، وفي الوقت نفسه كانت مُحتقرة مُزدراة — قال دائرة معارف القرن التاسع عشر :

« من هنا وُجد عصر كانت فيهِ قوانين العائلة غير معروفة ، وفيه كانت المراة حرة من كل قيد ومستقلة تمام الاستقلال ، ومع

ذلك كانت محتقرة مهانة للدرجة القصوى . فلما كانت العا
حال المراة كل التغير ، لانها بمجرد دخولها العائلة تنازلت عن اس
ولكنها اكتسبت بمقابل ذلك مركزًا معنويًا لم يكن لها من قبل

اقول فاجتماع حرية المراة واستقلالها مع احترامها وتعظيمها امر غير ممكن ، لانها باستقلالها تعتدي على مركز الرجل وحريته ، وهو في هذه الحالة يأنف من ذلك فيضطر لاحتقارها او عدم احترامها ، لانه اقوى منها جسمًا واوسع عقلاً كما قدمنا ، وعليه فالمرأة في طور الخضوع للرجل انعم بالاً وارفه عيشًا واسمى مقامًا ، فان اراد الجنس اللطيف ان يكون محتقرا فليطالب بالاستقلال والحرية ، فيرجع الى حالته كما كان في طور الهمجية .

ولنذكر حادثة قريبة تدل دلالة صريحة على ان المراة لا يمكنها ان تجاري الرجل في اعماله :

كتب اسعد افندي الملكي مكاتب المؤيد في الولايات المتحده الى المؤيد ما نصه :

« من قال انَّ المراه مثل الرجل في العقل والمقدرة ، ويجب ان تكون مساوية له فقد اخطأ واطلق القول جزافًا بدون تأمل ولا تروٍّ ، والمراة العاقلة غير المخدوعة بذاتها توافق على هذا القول في السرّ والعلانية .

.. دامت المراة تضيع ثلاثة ارباع الوقت ان لم اقل تسعة
.ه في اللبس والزينة ، وتقضي معظم العشر الباقي في الكلام عن
[illegible]رين ، فهي لا يمكنها المطالبة بحق واحد من حقوق الرجل، ولا
يجوز لها ان تدَّعي حق المساواه ، ولو وُكل امرُ تدبير هذا الكون
الى النساء فقط لكان اليوم قفراً — هذا ان بقي !

تسير المراَة مع الرجل جنباً لجنب في معرفة حاجات البيت
وتدبير صغيرها وكبيرها ، وغير ذلك مما يتعلق بزينته وتنظيمه ،
ولكنها اذا خرجت عن دائرة هذا البحث مشي الرجل ووقفت هي ،
لانها قاصرة وعاجزة عن مجاراته في الامور الاخرى :

ارادت احدى المحاكم في احدى ولايات هذه البلاد ان
تنتخب المحكَّمين (الجوري) الاثنى عشر شخصاً الذين يحكمون في
الدعاوي المهمة من بنات حوَّاء ،وكان ذلك في دعوى قتل ذات
شأن كبير فدعت عدداً كبيراً من العاقلات المتعلمات وانتقت منهنَّ
اثنتي عشرة عقيلة واجرت المحاكمة امامهنَّ ، ولما انتهى الاتهام من
تثبيت التهمة على المدَّعى عليهِ وفرغ من نفيها والقول ببطلانها
خطب القاضي في المحاكمات واوضح لهنَّ ما غمض من اوجهِ القضية
وبين لهنَّ النقط القانونية التي يجب عليهنَّ ان يبنينَ حكمهنَّ في
الدعوى عليها ولم يترك مبهماً الا واوضحهُ ولا مجملاً الاَّ فصَّلهُ وشرحهُ ،







الرجل كذلك ، بحيث ان المرأة بالنسبة الينا يمكن أن تُعتبر غير مؤَدبة . لاحظها جيداً ترَانها إما مفرِطة اومفرّطة في جنب العدالة فان عدم المساواة خاصية نفسها ، ولا ترى عندها الميل لتوازن الحقوق والواجبات ، وهو الميل الذي يؤلم الرجل ويسوقه ان لم يُتحصل عليه الى الدخول مع امثاله في نزاع شديد ، فالشيء الذي تحبه اكثر من كل شيء وتعبده هو الامتيازات والخصوصيات . أمّا العدالة التي تسوّي بين صنوف البشر فهي بالنسبة للمرأَة عبء ثقيل لا تحتمله

وقالت دائرة المعارف الكبرى :

« انّ الرجل اكثر ذكاء وادراكاً ، واماّ المرأة فاكثر انفعالاً وتهيجاً »

ترى مما قدمناه انه لا يمكن مساواة المرأَة بالرجل ، وانّ الحرية الموهومة التي يتطلّبها لها زعماء تحريرها هى تقويض لاركان العائلات ، بل هي سعيٌ لابادة الجنس اللطيف بما يطرأ عليه من المتاعب والاعمال التي ليس في قدرته تحمُّلها ، ولا في وسعه القيام بمهاتها ، فلذا اقتضت حكمة الله ان يكون الرجل هو الكفيل لها والحفيظ عليها بمقابلة قيامها بأمر منزلها وتدبير شؤون بيتها وتهذيب اطفالها ، فالزامها بغير ذلك من الجهاد في معترك الحياة الذى يقوم الرجال بالنضال فيه : خروج بها عن حياتها الحياة الطيبة الى إضعاف جسمها وتحميلها مالا يُستطاع »

قال الاستاذ (اجوست كونت) في كتاب « النظام السياسي على حسب الفلسفة الحسية » :

(نحن بدون أن نكاف انفسنا مناقشة تلك المستحيلات الخيالية (تحرير المرأة) المؤخرة للرقي — بأنه لو نال النساء يوماً من الايام هذه المساواة المادية التي يتطلبها لهنّ زعماء الدفاع عنهنّ بغير رضائهن ، فان ضماناتهن الاجتماعية تفسد على قدر ما تفسد حالتهن الادبية ، لأنهن في تلك الحالة سيكنّ خاضعات في اغلب الصناعات لمزاحمةٍ يومية قوية بحيث لا يمكنهنّ القيام بها ، كما انه في الوقت نفسه تتكدر المنابع الاصلية للمحبة المتبادلة »

وقال الاستاذ (جول سيمون) في مجلة المجلات الفرنساوية :

« المرأة التي تشتغل خارج بيتها تؤدي عمل عامل بسيط ، ولكنها لا تؤدّى عمل امرأة »

وقال فيها ايضاً :

« النساء قد صرن الآن نساجات وطباعات الخ الخ وقد استخدمتهن الحكومة في معاملها ، وبهذا قد اكتسبن بعض دريهمات ولكنهنّ في مقابل ذلك قد قوّضن دعائم عائلاتهن تقويضاً ، نعم ان الرجل صار يستفيد من كسب امرأته ، ولكن بازاء ذلك قد قلّ مكسبه لمزاحمتها له في عمله

وقال (اوجست كونت) في كتابه « النظام السياسي » :

«يجب ان تكون الحياة النسائية منزلية على قدر الامكان، ويجب تخلصها من كل عمل خارجي ليمكنها ان تُحقق وظيفتها الحبية على ما يرام »

هذه بعض اقوال فلاسفة الاجتماع وعلماء العمران الذين يبذلون وسعهم لتحقيق ما يعود على هذا المجتمع بالخير والسلام ، وكلها شاهدة ناطقة بانه لا يجوز أن تُساوى النساء بالرجال ، لانَّ في ذلك فساد النظام وتلاشي الاجتماع ، فلا بدَّ أن يكون عمل المرأة محصوراً لا يتجاوز اسوار دارها ، والاَّ كان في ضده خراب العائلات الذى يُنتج انحلال المدنية وتقويض اركان المحبة والوئام

قلنا فيما تقدم : ان مساواة الجنسين ضرب من المحال ولو وُجد لسقطت المرأة عن الاعتبار والمقام السامي الذى هو لها في نفوس الرجال ، وذلك انها ان كانت مساوية لهم في جميع الحقوق فلا يمكن حينئذٍ أن يميلوا اليها ميلَهم الاول حينما كانت خاضعة لهم. ومَن درس تاريخ المرأة يظهر له باجلى بيان انه مضى عليها حين من الدهر كانت فيه مستقلة حرة بجميع الاعمال ، وفي الوقت نفسه كانت مُحتقرةً مُزدراة — قال دائرة معارف القرن التاسع عشر :

« من هنا وُجد عصر كانت فيهِ قوانين العائلة غير معروفة ، وفيه كانت المراة حرة من كل قيد ومستقلة تمام الاستقلال ، ومع

ذلك كانت محتقرة مهانة للدرجة القصوى . فلما كانت العا
حال المراة كل التغير ، لانها بمجرد دخولها العائلة تنازلت عن اس
ولكنها اكتسبت بمقابل ذلك مركزًا معنوياً لم يكن لها من قبل
اقول فاجتماع حرية المراة واستقلالها مع احترامها وتعظيمها امر
غير ممكن ، لانها باستقلالها تعتدي على مركز الرجل وحريته ، وهو
في هذه الحالة يأنف من ذلك فيضطر لاحتقارها او عدم احترامها ،
لانه اقوى منها جسماً واوسع عقلاً كما قدمنا ، وعليه فالمرأة في طور
الخضوع للرجل انعم بالاً وارفه عيشاً واسمى مقاماً ، فان اراد الجنس
اللطيف ان يكون محتقرا فليطالب بالاستقلال والحرية ، فيرجع الى
حالته كما كان في طور الهمجية .

ولنذكر حادثة قريبة تدل دلالة صريحة على ان المراة لا يمكنها
ان تجاري الرجل في اعماله :

كتب اسعد افندى الملكي مكاتب المؤيد في الولايات المتحده
الى المؤيد ما نصه :

« من قال انّ المراه مثل الرجل في العقل والمقدرة ، ويجب
ان تكون مساوية له فقد اخطأ واطلق القول جزافاً بدون تأمل ولا
تروٍّ ، والمراة العاقلة غير المخدوعة بذاتها توافق على هذا القول في
السرّ والعلانية .

وما دامت المراة تضيع ثلاثة ارباع الوقت ان لم اقل تسعة «بجزء في اللبس والزينة ، وتقضي معظم العشر الباقي في الكلام عن متبرجين ، فهي لا يمكنها المطالبة بحق واحد من حقوق الرجل، ولا يجوز لها ان تدَّعي حق المساواه ، ولو وُكل امرُ تدبير هذا الكون الى النساء فقط لكان اليوم قفرًا — هذا ان بقي !

تسير المراَة مع الرجل جنبًا لجنب في معرفة حاجات البيت وتدبير صغيرها وكبيرها ، وغير ذلك مما يتعلق بزينته وتنظيمه ، ولكنها اذا خرجت عن دائرة هذا البحث مشي الرجل ووقفت هي ، لانها قاصرة وعاجزة عن مجاراته في الامور الاخرى :

ارادت احدى المحاكم في احدى ولايات هذه البلاد ان تنتخب المحكّمين (الجوري) الاثنى عشر شخصًا الذين يحكمون في الدعاوي المهمة من بنات حوَّاء ،وكان ذلك في دعوى قتل ذات شأن كبير فدعت عددًا كبيرًا من العاقلات المتعلمات وأُنتقت منهنَّ اثنتي عشرة عقيلة واجرت المحاكمة امامهنَّ ، ولما أُنتهى الاتهام من تثبيت التهمة على المدَّعى عليهِ وفرغ من نفيها والقول ببطلانها خطب القاضي في المحاكمات واوضح لهنَّ ما غمض من اوجهِ القضية وبين لهنَّ النقط القانونية التي يجب عليهنَّ ان يَبنينَ حكمهنَّ في الدعوى عليها ولم يترك مبهمًا الا واوضحهُ ولا مُجملاً الاَّ فصَّلهُ وشرحهُ ،

